بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الرابع | السنة الأولى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
قرش
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
وللطلاب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ | مارس سنة ١٩٥٢





هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

ليس فى الدنيا كتاب أحاط بمسائل الحياة ، وربط بين شئونها ، وجعل بعض هذه الشئون أسبابا لبعض ، وحلّ مشاكلها فى بساطة ويسر كالقرآن الكريم :

« لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

فإذا قرأته ، وتدبرت آياته وجدته كلا لا يقبل التجزئة ، ووجب أن تُرجع ما فيه من أحكام إلى أصولها ؛ حتى يتبين لك الحق فيها ، فلا تقتصر على حكم دون أن تُلقى بالا إلى ما يتعلق به من الآيات الأخر ؛ كما فعل ويفعل بعض المسلمين فى كثير من المسائل .

ولنضرب لذلك مثلا الآية الكريمة : « والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كسبا نكالا منَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الرابع — السنة الأولى

صاحب الامتياز ورئيس التحرير سعيد رمضان

الإدارة : ٣٢ شارع المنيل بالروضة بالقاهرة

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربى

سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات

صـ	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	وللطلاب
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — مارس سنة ١٩٥٢

هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبى

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » .

ليس فى الدنيا كتاب أحاط بمسائل الحياة ، وربط بين شئونها ، وجعل بعض هذه الشئون أسبابا لبعض ، وحلّ مشاكلها فى بساطة ويسر كالقرآن الكريم :

« لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

فإذا قرأته ، وتدبرت آياته وجدته كلا لا يقبل التجزئة ، ووجب أن تُرجع ما فيه من أحكام إلى أصولها ؛ حتى يتبين لك الحق فيها ، فلا تقتصر على حكم دون أن تُلقى بالا إلى ما يتعلق به من الآيات الأخر ؛ كما فعل ويفعل بعض المسلمين فى كثير من المسائل .

ولنضرب لذلك مثلا الآية الكريمة : « والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقطعوا أيدِيَهما جزاءً بما كسَبا نكالا منَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ » .

لا شك أننا إذا قرأنا هذه الآية وحدها منقطعة عن باقى القرآن ، وفهمنا السرقة بمعناها المنصوص عليه قانونا من أنها : (اختلاس مال مملوك للغير) شعرنا بشىء من التردد فى أن يكون الأمر كذلك وأن يُعاقَب السارق بقطع يده ، أو شعرنا بأن العقوبة رهيبة لا تتفق رهبتها مع تفاهة السرقة فى حدّ ذاتها ، أو تفاهة المسروق أحيانا . وهذا ما يعترض به كثير من المسلمين ، والأجانب على العموم ، ويبدون امتعاضا من هـذا الجزاء الصارم . وهم معذورون فى ذلك ؛ لأنهم لا يعرفون من أمر الإسلام ما يدعوهم إلى الاطمئنان إلى أنه حق من عند الله :

« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ ، وبالْحَقِّ نَزَلَ » .

إن القوانين الوضعية لا تستقصى حالة السارق وقت السرقة ، ولا تستقصى أثر الحكم فيه ، وفى أهله وولده ؛ بل تعاقبه مطلقا . جاهلا كان أم عالما . فقيرا أم غنيا . بل ربما كان علمه وغناه من أسباب تخفيف العقوبة عليه لا من أسباب تغليظ العقاب. والأمر ليس كذلك فى دين الله .

إن الله عز وجل أراد أن تنشأ العِفَّة من داخل النفس أولا ؛ فينصرف الإنسان عن المعاصى وهو فى خلوته لا يطلع عليه أحد من الناس ، ويشعر بأن ربه معه أينما كان ، مطلع على أعماله ، لا تخفى عليه منه خافية : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم » .

وقد ذكر الله تعالى عقاب السرقة مرة واحدة ، ولكنه كرر النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وصوّره فى صورة مؤثرة تردّ من تحدثه نفسه بأن يمد يده إلى مال غيره . دون حاجة إلى التخويف بالعقاب الدنيوى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا، وسيصلون سعيرا » ، « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتُدْلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

وفى الحديث عن الرسول عليه السلام : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » .

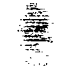
وتأمل قول الله تعالى : « وَمَن يشاقق الرسول مِن بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

تأمل : «من بعد ماتبين له الهدى» : أعنى أنه يجب أن تبلغ الدعوة إلى السارق ، ويتهذب بالتهذيب القرآنى ، ويعرف ماله وما عليه . مما يتعين معه القول بأن التعليم فى الإسلام إجبارى ، وواجب على الفرد ، وحق له فى الوقت نفسه .

فإحياء روح الإنسان وضميره ، وتزكية نفسه ، وتطهير قلبه واجب أول فى الإسلام ، عليه أكثر المعول فى أن يسلك الإنسان سلوكا حسناً فى الجماعة التى يعيش فيها .

وإذا كنا ندرك أثر التعليم العادى فى نفوس الناس ؛ فما بالنا بتعليم القرآن الذى هو أساس لكل الفضائل .

ولكن لا يكفى أن تهذب الشخص ، وتطهر قلبه ، وتزكى نفسه ، وتحيي ضميره لكى يكون إنساناً فاضلا ؛ فإن حاجاته الضرورية التى بها وقاية نفسه تغلبه على الفضائل أحيانا . لذلك قضى أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين بأن يوجد فى الدين من النظم ما تندفع به حاجة الإنسان إلى السرقة . وبمعنى آخر لابد من أن نتأكد قبل أن نعاقب إنساناً أن عذره فى ارتكاب جنايته قد سقط ، وأنه لم يرتكبها إلا بغياً وعدوانا .



وحاجات الإنسان الضرورية هى :

(١) بيت يسكنه يواريه عن أعين الناس ، ويجعله فى أمن من العادين والباغين .

(٢) طعام يحفظ به نفسه .

(٣) ملبس للصيف والشتاء .

وأقول : إن الآيات والأحاديث التى أخذ منها الفقهاء النص على هذه الأشياء الثلاثة تستوجب القول بأنه يجب أن يكون مضموناً لكل إنسان العلاج المجانى من الأمراض ؛ متى لم يكن قادراً عليه .

هذه الضرورات لا يحصل عليها امرؤ بالاستجداء ؛ بل لابد من العمل . ودينه يحضه على ذلك : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يد عامل ورمت من العمل فأخذها وقبلها وقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » . وجاءه رجل يسأله فلم يعطه ما سأل ؛ بل أعطاه أداة العمل ، ووجهه إليه ، وقال : « ارجع إلىّ لتنبئنى بحالك » .

فيجب حينئذ على ولى الأمر أن يساعد الناس على إيجاد أعمال لهم ، ويهيىء لهم أسباب العمل ، ويتعهدهم حتى تصلح حالهم .

فإذا كان دخل إنسان لا يكفيه ، أو لم يجد عملا ، أو كان غير قادر على العمل فهو فى كفالة الدولة تمده بأسباب الحياة الضرورية التى بيناها .

أما المال الذى يلزم لذلك فيؤخذ من الزكاة التى جعلها الله فى أموال الأغنياء حقاً للفقراء . فإن لم تكف الزكاة لسد حاجات الفقراء أصبح فرضاً على كل من عنده فضل من مال أن يعود به على الفقراء حتى يستوفوا حاجتهم .

فإذا مُنع الفقير حقه فله أن يقاتل عليه ؛ لأن الله يأمر بمقاتلة الباغين « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » ولا شك أن مانع الحق باغ .

فلما كفل الله عز وجل للفقير حقه ، وأباح له القتال عليه ؛ كانت العقوبة الهينة مفسدة للمجتمع ، ولا تتفق مع المسئوليات التى فرضها الله على الناس . فكان جزاء من سرق — بعد أن استوفى حقه — أن تُقطع يده ، وليس بعد ذلك توازن فى الحقوق والواجبات « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ قِيلاً » .

لا شك أن الإنسان حين يعلم ذلك ، وينتهى إلى أن النص على عقوبة السرقة مُكمَّل بنظام اجتماعى محكم تستريح نفسه إلى عدالة العقاب ، وتطمئن إلى حكمة العزيز الحكيم .

هذه العقوبة الغرض منها زجر البغاة عن أن تمتد أيديهم إلى مال الناس بالباطل . وهذا يكفى لانقطاع السرقة من المجتمع الذى تسود فيه العدالة الاجتماعية على هذا النحو .

وهكذا يجب أن نقرأ القرآن ، ونتدبر آياته ، ونربط بعضها ببعض ، ونربطها بما ورد عن المعصوم عليه السلام المبيِّن عن ربه ؛ لكى نعلم أن كل ما جاء به القرآن الكريم إنما هو حق لا شائبة فيه ؟

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

(٤)

بين الشيطان والإنسان :

« ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله [١] » .



أفصح الشيطان — أول الأمر — عن هدفه فقال : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .

ثم بين وسيلته إلى ذلك فقال : « لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » .

ثم فصّل عناصر تلك الوسيلة فقال :

١ — ولأضلنهم

٢ — ولأمنينهم

٣ — ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام

٤ — ولآمرنهم فليغيرن خلق الله

وإيراد هذه الأربعة فى القصة يبين فضل الله على عباده ، ورحمته بهم ، وما يريد لهم من هداية ورشاد ، وفوز فى الدنيا والآخرة : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم [٢] » .

---

(١) النساء — ١١٨ .

(٢) النساء — ٢٦ .

ذلك كل عمل الشيطان مجموعاً فى أربعة أمور ؛ وما يسوغ لنا أن نمر بها ونحدق فيها ونحن عنها معرضون كأننا لا نقرأ شيئا أو لا نفقه ما يقال ! . فمن وجد من نفسه تلك الظاهرة — ظاهرة التبلد بإزاء المعانى الكبار — فليعلم أن القصة الكريمة تدعوه أن يكون إنساناً مرهف الحس ، يقظ المدارك ، يقدر كل ما فى الوجود من قيم ظاهرة وباطنة .

والناس ما كانوا يوماً بحاجة إلى من يعلمهم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن كسب المال يحتاج إلى سعى ، وأن جنى الثمر يحتاج إلى غرس ؛ فهم أعلم بشئون دنياهم على ما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكنهم كانوا — وما زالوا — بحاجة إلى من يبصرهم بقيم الأشياء ، ويجلو لهم صريح المعانى . ومن أجل ذلك أرسل الله لهم رسله يعلمونهم الكتاب والحكمة ، ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون .

وإذا ساغ لنا أن نقول على سبيل التقريب والتمثيل ، قلنا إن صفحة العقل ذات وجهين : وجه تستقبل به ما ظهر للحس من شئون الحياة الدنيا ، فتدركه وتمنطقه وتعرف وسائل الانتفاع به . . وآخر تستقبل به ما خفى عن حواسنا من لباب الحق وأسرار المعانى ؛ فتدرك منه ما يبين لنا مركزنا فى هذا الوجود ، وحقيقة العلائق بيننا وبين ما حولنا : بيننا وبين الله . . وبيننا وبين الكائنات السمعية . . وبين بعضنا وبعض . . وعلاقتنا بما فى الأرض من ثروة وثمر وزينة . . وترسم لنا — ببيان هذه العلائق — الطريقة المثلى ، والصراط السوى الذى يكفل لنا خير الدنيا والآخرة .

فليس معنى نجاح أى امرىء فى حيازة المال وإصابة الشهرة أنه صار بمواهبه الظاهرة فى غنى عما يهدى إليه عقله الروحى ؛ فإن النسبة بين ما تهدى إليه حواسنا المعروفة ، وملكاتنا العادية — وما يهدى إليه عقلنا الروحى وملكاتنا الخفية — كالنسبة بين ما ترى لنا العين الصناعية والعين الطبيعية : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

* * *

ذلك هو الشأن فى إدراك المعانى ، وقيم ما فى الوجود من أمور ، لا يغنى عنها

ما يحصل المرء من معارف دنياه القريبة ، ولا ماينال فيها من ثروة وجاه إلا ما يغنى الظلام الدامس عن ضوء الشمس فى رابعة النهار ؛ فإذا أحسنا التأمل فى تلك الأمور الأربعة التى تعرضها القصة — على ضوء ما قدمنا — تبينت لنا بشاعة المسخ الذى يريد الشيطان أن ينزله بنا ، وعرفنا كيف نحبط كيده ونحرز أنفسنا منه .

ولأضلنهم .

قال صاحب المصباح المنير : « والأصل فى الضلال الغيبة ومنه قيل للحيوان الضائع ضالة » وقال فى أساس البلاغة : « ضل الماء فى اللبن واللبن فى الماء إذا خفى فيه وغاب » ومنه قوله تعالى : « أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد[١] ؟ » أى أئذا متنا وغيبتنا الأرض وصرنا ترابا كترابها أئنا لمبعوثون ؟

واستعمل للأشياء تضيع معالمها من الذهن لطول العهد أو نحوه كقوله تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى[٢] » .

واستعمل الضلال كذلك فى ذهاب الإنسان عن صوابه .

والصواب نوعان كما عرفت :

نوع ينير لنا أفق الأمور الظاهرة ، ويبين لنا سنن الله فى ترابط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، وعلاقة الأشياء بعضها ببعض ، وسبل الانتفاع بها . . فإذا غاب المرء عن صوابه هذا زال عنه ما يعرف من روابط بين الأشياء ، واضطرب أمره ، وصار لا يستبعد عليه أن يطلب نتيجة بغير مقدمة ، وينتظر من الأشياء أن تؤتيه ما ليس من طبيعتها . . وهذا فى بابه هو الضلال . . ولقد ظل يعقوب عليه السلام يذكر يوسف ولا ينقطع له رجاء فى لقائه لما كان يُلقى الله فى نفسه من طمأنينة ؛ أما أبناؤه فكانوا يعتقدون أنه قد هلك أخوهم فى الجب ، أو ذهبت به صروف الرق فى السنين المتعاقبة إلى حيث لا يرجى له لقاء ، ولذا كانوا يرون فى طول لهج أبيهم به

(١) السجدة — ١٠

(٢) البقرة — ٢٨٢

وتوقعه لقاءه ضربا من التعرض للمستحيل ، وأثراً من الفَنَد وذهاب اللب فيقولون له : «تالله إنك لفى ضلالك القديم» .

والصواب الآخر هو الذى يكشف لنا أفق المعنويات ، ويرينا قيم الأشياء ، ويبين لنا مكان كل منها فى المجتمع . . . فإذا غاب المرء عن صوابه هذا زال عنه إحساسه بالقيم المختلفة ، وصار لا يبالى أن يضع معنى من المعانى فى غير موضعه الذى هو له . . . فالعبودية — مثلا — معنى من المعانى الأصيلة فينا ، ولكن موضعه الحق أن نجعله لله رب العالمين ؛ فإذا زال عن امرىء صوابه لايبالى أن يضعه فى غير موضعه فيعبِّد نفسه لمن شاء وما شاء من خلق الله . . . وذلك هو الضلال الذى لا يريد لنا الشيطان سواه ! . .

فهذان الضربان من الضلال أساسهما ضيعة الصواب وذهاب اللب ، غير أن ضيعة الصواب فى أفق المحسات آفة من قدر الله تعرض للمرء كما يعرض له أى طارىء من مرض ، ولا حيلة له فى ردها إذا ألمت ، ولا يد له فيها إذا زالت ؛ ولذا يعتبر صاحبها فى القانون الوضعى غير مسئول ، وفى شريعة الإسلام غير مكلف .

أما ضيعة الصواب الروحى فأمر إرادى محض ، فهو حين يعتدى على مال أحد — مثلا — أو حياته ، يستطيع أن يكف نفسه عن إنفاذ جريمته إذا جعل لإرادته سيطرة على الموقف . . . وهل توبة التائبين وورع الورعين إلا لون من سيطرة الإرادة ؟

والصواب فى أفق المحسات يقوم على قوانين ذهنية ، وأقيسة منطقية .. أما فى أفق المعنويات فقوامه يقظة شعورية يستشعر بها المرء بشاعة الرذيلة وجمال الفضيلة ؛ فينقبض عن طيف الأولى وينبسط لنور الأخرى ؛ وبها يكون غضبه لمحارم الله ، وجهاده وبذله فى سبيل الحق : أى أنه حين يقبل على شىء أو ينصرف عنه لايخضع لمنطق ذهنى بقدر ما يخضع لسلطان الحس وإملاء الشعور .

فإذا انطفأت جذوة ذلك الحس استوى لديه جمال الفضيلة ، ودمامة الرذيلة ، وصارت المثل العليا قيما كاسدة لاتساوى شيئاً فى سوق عرض هذا الأدنى .. وهو من شر ضروب الضلال التى يصرف إليها الشيطان جهده .

والضلال بنوعيه مجافاة لسنة الله فى الأشياء ؛ فالذى يتضعضع لذى جاه أوغنى ليصيب مما عنده كالذى يستبدل حفنة من التراب بقبضة من اللؤلؤ ، كلاهما يجافى منطق المعاوضات فى سوق الأخذ والعطاء ؛ إذ يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ... والناس لايرون فى ميدان المحسات — بطبيعة الحال — من يزاول صفقة اللؤلؤ والتراب لأنه عَتَه ، ولكنهم يجدون للصفقة الأخرى — لو كشف عنهم الغطاء — من يزاولها فى كل أفق ، وهو لايدرى مايصنع بنفسه من بوار ووكس ، بل وهو يظن بنفسه الألمعية والحصافة إذ كسب لها الزلفى عند فلان وخسر لها الجاه عند الله ، واشترى لوجهه قناعا من المهانة بما كان فيه من وضاءة العزة والمروءة والاستغناء .

وإذا كان الضلال كذلك فالهدى هو تحرى سنة الله سبحانه ، وإقامة الأعمال على مقتضاها ؛ فمن أخذ بمنطق تلك السنن أقبلت عليه أخلافها بكل مالديها من رزق حسن للدنيا والآخرة . .

والحقيقة الكبرى التى تلتقى عندها سنن هذا الوجود : هى أن الله سبحانه مصدر كل عطاء ،وواهب كل خير ، وهو المعبود على بصيرة ، والمدعو بحق ، وله دعوة الحق .. فمن بسط إليه كف رجائه، وتعرض بقلبه لنفحاته يبتغى حياة لنفسه وريًّا لظمئه كان خليقا أن تقبل عليه سنة الله بما دعا به : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » فلا يلبث أن يجد فى قلبه بلّ الصدى ورى الظمأ ، وطمأنينة النفس وسعادة الحياة « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .. وذلك هو الهدى فى أوضح صوره وأنصع حقائقه

***

وللضلال ألوان كثيرة ، وأسباب موصولة بها مفضية إليها ..

فقد يضل الإنسان — أو يغيب عن صوابه — إذا هو ساير طغيان غرائزه أوقواه النفسية الحيوانية كلما دعته إلى سبيل من سبلها ؛ فإذا سيطر عليها ، وكبح جماحها ، ووجهها إلى مآزكها بأمر الله ؛ فقد عصم نفسه وأحرزها من ضلة الشيطان ...

وهذه امرأة العزيز ترى فتاها وقد نضر حسنه ، وراق شبابه فتثور بها رغبة جامحة إليه تنسى معها أو تهدر كل قيمة فاضلة ، وكل اعتبار أدبى واجتماعى يحف بمنزلتها :

أهدرت قيمة العرض والعفة . وأهدرت حق الزوج وماله من رعاية .. وتجاوزت فارق السن بينها وبينه .. واستباحت رباط التبنى الذى أراده العزيز بقوله : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » .. وضربت صفحا عن كل احتمال لما يثور فى المجتمع من أقاويل الناس عنها ، وأقبلت فى ضلالها عن هذا كله تقول له هيت لك بعد أن غلقت الأبواب ، فيتأبى عليها ويستعصم .. ويتسرب الخبر الأثيم من وراء الأبواب والجدران فإذا نسوة فى المدينة يقلن : « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إن لنراها فى ضلال مبين ».

وقد تكلم علماء النفس فى علاج طغيان الغرائز بما سموه « الإعلاء » أو « التسامى » وسماه القرآن الكريم تزكية « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ولكن ما أوردوه فى ذلك لايبلغ أن يكون شيئاً إلى جنب ماجاء به القرآن الكريم ؛ ونرجو أن نعرض لبعضه فيما نتناول من القصص إن شاء الله ، فنسأله المعونة والتأييد ..

وهذا موسى عليه السلام — قبل أن يبعث وهو شاب فى عنفوان الشباب — تهب عليه هيجة من غضب ، من قبل قواه الغضبية ، أو من قبل غريزة المقاتلة كما يسميها المحدثون ، فقد رأى إسرائيليا من شيعته يشتجر مع مصرى من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فكأنما حضره كل ما يجد فى صدره من موجدة على الوضع الباغى الذى جعل قومه أذلة فى مصر لفرعون وملئه ؛ فوجه قبضته عنيفة إلى المصرى فقضى عليه !

وصواب المرء فى عالم المعنويات يمده بحساسية مرهفة تقدر كل قيمة فى المجتمع . حساسية إذا رأت الصغير أو الكبير لاترى فيه إلا حرما مقدسا تهيب أن تستبيح له حرمة سراً أو علانية ، فتقدس لكل فرد إنسانيته وحريته ودمه وعرضه وماله ؛ بل تقدس لكل حيوان أو جماد ماله من حق وحرمة ، لايحملها على ذلك خشية قانون أو خوف أحد من الناس ، إنما يحملها عليه ماتستشعره لتلك المعانى من جلال وهيبة .

لقد غاب كل ذلك عن موسى — عليه السلام — فى هيجة الغضب ، فلما سكنت حدته وصفا له صوابه تبين خطأ ما أقدم عليه فى تلك اللحظة الخاطفة فأسف وندم

وأقبل على الله مستغفراً مقراً بما أتى : « قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى . فغفر له إنه هو الغفور الرحيم » . . ولقد سماها موسى عليه السلام ضلالا فى محاجته لفرعون : « فعلتها إذاً وأنا من الضالين » . . . بل إنه حين سكنت ثورته وعاد إلى صوابه وتبين بشاعة ما ألقى الشيطان فى ثورة غضبه قال : « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » .

وفى هذا المثل جوانب كثيرة جديرة بالبحث والتحليل ، ولكن الذى يعنينا منها فى هذا المقام أن حدة الطبع ما لم تسيطر عليها الإرادة قد تهبُّ منها بفعل الشيطان ريح تعصف بصواب المرء : أى بتقديره لقيم الحقائق والمعانى ؛ فإذا تصرف حينئذ تصرف على غير هدى فيكون القتل لديه — مثلا — عدلا لمشاجرة تافهة تعرض له أو لأحد من شيعته ، أو عدلا لدراهم معدودة يمطلها أو يجحدها غريم لا ذمة له على نحو ما نرى فى حياتنا العامة . . وذلك من صميم الضلال الذى يبغيه الشيطان ، فلنعرفه ولنأخذ الأهبة لسد مسالكه ، ولنحذر الغضب — حتى لحرمات الله — أن يدخل علينا ما ليس من الصواب . . . وقد أسلفنا فى المقالات السابقة عن الغضب ووسائل توقيه ما فيه غنية لمن يريد أن يقف على هذه الثغرة من ثغور النفس .

ومن الضلال مايُستدرج إليه المرء بالتعرض لما لا يطيقه عقله من المعارف الروحية .

فالعقائد أمور روحية صرفة ، لا يستقل العقل ببيان حقائقها وتجلية أصولها وأسرارها ، ولا طاقة له بتصور هيئاتها ؛ فهى من اختصاص النبوات التى تتلقى الوحى بها من الله سبحانه . فإذا ذهب امرؤ يجتهد لنفسه فيها فقد زج بعقله فى أفق ليست له طبيعة منطقنا العادى ، ولا معالم مما اعتادت عقولنا أن تهتدى بها . . أى أنه يغيب عن صوابه باختياره ، وذلك من أخطر أنواع الضلال .

ولقد ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه فما كان أسرع من السامرى إذ اتخذ لبنى اسرائيل عجلا جسداً له خوار ، ففرحوا به والتفوا حوله . . ولعل تصورهم السقيم قاس عجل السامرى بما كانوا يرون للمصريين من عجول معبودة فتقبلوا بسذاجة حكم هذا القياس ، وأملت لهم أوهامهم أن يقولوا هذا إلهكم وإله موسى الذى ذهب للقائه فى جبل المناجاة . . . ولكنهم ما لبثوا حين عاد إليهم موسى غضبان أسفاً أن تبينوا

ما وقعوا فيه من ضلالة وأقبلوا على الله تائبين مستغفرين : « ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » .

وما كان لهم أن يقبلوا شيئا من أمور العقيدة غير ما تركهم عليه نبيهم ، ولا أن يستنتجوا ذلك الحكم المغرق فى الضلالة : هذا إلهكم وإله موسى الذى ذهب للقائه فى جبل المناجاة ... « ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى » ولكن إعجابهم بما توصلوا إليه من فكرة سخيفة سوّل لهم أن يردوا عليه بقولهم « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » .

والعاصم من هذا الضرب من الضلال الوقوف عند كل نص قطعى الثبوت والدلالة مما جاء به المعصوم صلى الله عليه وسلم لا نزيد عليه ولا ننقص منه ، ولا نتكلف الخوض أو الاجتهاد فى غير محيط دلالاته الصريحة .

وهذا يقفنا على باب خطير كثر فيه اللدد والجدل منذ ضحى الإسلام إلى اليوم دون أن ينتهى مراؤهم إلى غير التفرق والتنابز ، فنشير إليه ولا نلج له عتبة ، ونحذر من شره ، فهو إن لم يعقب زيغا فى العقيدة أعقب فرقة موهنة للوحدة ، وكله من ضلال الشيطان . . . ولو أنهم اتقوا الله فيما لديهم من نصوص القرآن الصريحة ، واكتفوا بالأصول دون الفروع لما فرقوا دينهم شيعا ، ولما ذهبوا مللا متباغضة على هذا النحو المشين !

وقد يكون من ضلال العقل أيضاً أو إضلاله أن يتحدث المرء إلى أقوام بحديث لا تناله عقولهم فيكون فتنة لهم ، وهذا معنى حديث شريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس أسلم نية ولا أصفى سريرة من جماهير الناس .

وليس أظلم سريرة ولا أخبث نية ممن يندس بين هذه الجماهير فى المجتمع الهادىء ليثيرهم إلى ما ليس من اختصاصهم ، أو إلى ما لا يحيطون بعلمه من حديث المسائل العليا .

ولكل قوم سامرى يثيرهم إلى فتنة فى العقيدة أو فتنة فى نظام المجتمع ، ولقد أثير الغوغاء فى فجر الإسلام ليعالجوا ما سمى لهم فساداً فى سياسة عثمان رضى الله عنه ، فزحفت جحافلهم الهائجة المائجة من الأقطار المختلفة ، وخرج الأمر من نطاق أهل

الحل والعقد ، وانتقل زمامه إلى تلك الأرجال المختلطة الأهواء المتباينة المشارب فأصيب الإسلام بصدع فى وحدته لا يزال قائماً للآن .

وليس قتل عثمان رضى الله عنه هو الصدع — على ما فيه من بشاعة ونكر — بل الصدع هو انشعاب المسلمين إلى مذاهب ونحل متعادية متحاربة إلى اليوم ... ولا يريد الشيطان فى جماعة من الجماعات أكثر من هذا !

والعاصم من ضلال هذه الفتنة هو احترام الأوضاع الصحيحة لكل جماعة وأهمها تدبير المسائل العليا بمعرفة العدول من أهل الحل والعقد — فيما بينهم وبين الإمام — مع انصراف العامة إلى ما يحسنون .

فإذا أرادت جماعة ما أن تعرف مبلغ هداها أو ضلالها عن الصواب :

فلينظر أهل الحل والعقد هل تخلوا عن واجبهم فى رعاية أمر الجماعة ؟

ولينظر العامة هل هم يستبيحون الخوض فى منازعة أهل الحل والعقد ولاية اختصاصهم ، أو يتحرجون من ذلك ؟ !

ولينظر الأفراد من مدّعى النصح والغيرة على الإصلاح ، هل هم يأتون البيوت من أبوابها فيدخلون على أهل الحل والعقد مباشرة ، أو يأتونها من ظهورها فيتحدثون إلى العامة بما لا تطيقه أذهانهم ، ويثيرونهم إلى ما لا يحسنون ؟ !

ذلك هو مقياس النظر الصادق الذى يتبين به الجميع ما عليه كلٌّ من صواب أو ضلالة ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

« يتبع »

« الشهيد حىّ »

بالله لا تندبوا قتلى ولا تهنوا ... بعدى ، ولا تغرقوا فى النوح والحزن
إن الشهيد لحىٌّ عند خالقه ... وإنما الميْتُ حقاً خائن الوطن

« شكيب أرسلان »

بين الوحي والسيرة

(٢)

حدثنا الشيخان فيما نقلا عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « فجاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ؛ قال فقلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ قال قلت ما أنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت ما أنا بقارىء ؛ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زملونى . زملونى » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : « أى خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر قال : لقد خشيت على نفسى . . . . . » قالت له خديجة : « كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . . . »

إن الله سبحانه يعلم أن هذا المختلى فى الغار أمى لا يقرأ ولا يكتب ، فكيف ينزل عليه الوحى بقوله : « اقرأ . . . . ؟ » .

إن للقراءة معنيين : — أما أحدهما فهو التلاوة على مثل ما فى قوله سبحانه « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » أى لتتلوه عليهم ، وأما الآخر فهو النظر فى الحروف المعروفة ، وما تؤلف من كلمات لاستخلاص ما جاء فيها من المعانى .

فأى المعنيين تطيب له النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ .

لقد ذكر كثير من العلماء المعنى الأول وقالوا : إن معنى « اقرأ باسم ربك » اجعل قراءتك وتلاوتك للقرآن مبدوءة باسم الله . . .

ونحن لا نمنع هذا ولا نعارضه ، ولكنا نرى فى خبر عائشة ما يجعل المعنى الثانى راجحاً مقبولا . . . فلو أن المطلوب هو مجرد التلاوة لقال له الوحى : اقرأ كذا وكذا مما أتلوه عليك ، ومما سأتلوه فيما بعد . ! ! .

ذلك إلى أن الرسول نفسه انصرف ذهنه إلى القراءة بمعناها الثانى فأجاب : ما أنا بقارىء ! ! أى أننى أمى لا أقرأ ولا أكتب ... ولو كان جبريل يريد معنى التلاوة لأجابه حينئذ بأن المراد هو التلاوة لا قراءة الحروف والكلمات التى لا يدريها الأميون ! ! .

وتكرر قوله صلى الله عليه وسلم « ما أنا بقارىء » ، وتكرر قول جبريل له : « اقرأ » دون أن يحوله عن المعنى الذى استقر فى ذهنه من معنى القراءة . . .

ونحن نعلم أن الوحى كان ينزل أحياناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح له حكماً اجتهد فيه فأخطأ ، فأولى ثم أولى أن يصحح له ما أخطأ فى فهمه من مرامى الوحى حين نزوله عليه . . . فسكوت جبريل عما ذهب إليه ذهن الرسول من معنى القراءة فيه إقرار له على ما فهم . . .

ذلك إلى أن ما دار بين الوحى والرسول لا يحتمل القراءة بمعنى التلاوة . . . فقد فسر أصحاب هذا الرأى — كما سبق — « اقرأ باسم ربك » بأن معناها اجعل تلاوتك مبدوءة باسم الله . . . فإذا سألت أين الكلام الذى سيجعل تلاوته مبدوءة باسم الله ؟ لا تجد شيئا إلا قوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ،الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فأين فى هذه الآيات الكريمات ما يصح أن يكون الرسول أمر بتلاوته مبدوءاً باسم الله ؟ .

إن كل ماجاء بعد قوله سبحانه «اقرأ باسم ربك» إن هو إلا صفات للرب عز شأنه ، وليس منها ما تعتمده اللغة أو العقل على أنه هو المتلو الذى تبدأ تلاوته باسم الله ! !

ولعل أصحاب هذا القول ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه لما علموا من أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستحالة أن يأمره الله سبحانه بقراءة الحروف التى تؤلف الكلمات ، وترمز إلى المعانى ، فلم يكن لهم بدّ من أن يختاروا للقراءة معنى لا يتعارض مع أميته صلى الله عليه وسلم ...

وحق لهذا السلف الصالح أن يلتمس للقراءة معنى غيرقراءة الحروف والكلمات ... ولكن لماذا لم يدخلوا فى تقديرهم معنى أوسع من معانى التلاوة والاستظهار ؟ . . لماذا لم يدخلوا فى تقديرهم أن تلك نبوة يودعها الله سبحانه صدر نبيه ، ويقرّ أسرارها فى قلبه الشريف . والنبوات والوحى وما إليهما أمور ليست من طبيعة عالمنا هذا الأرضى ؟

وأن المقرر أن مرد إدراك هذه الأمور هو لقانة القلب ، وهى أرقى وسائل الإدراك فى الإنسان ، إذ تحصّل له من المعانى والحقائق والأسرار والصفات فى أقل من لمح البصر بغير حروف ورموز ما تضيق عنه المجلدات الضخمة ، ولا تتسع لتحصيله الشهور والأعوام .

ولقانة القلب نورمنتشر فيه ، وحساسية مرهفة يتجاوب بها مع كل شىء ؛ فلا يكاد حس صاحبها يقع على شىء حتى يشعر كأنه ألقى إليه بأسراره ؛ فإذا الوجود كله أمامه كتاب منشور يقرأ فى مشاهده ما لا يقرأ المطموسون ذوو الحجاب .

ولقد جاء القرآن الكريم ينبه إلى ما على القلوب من أقفال وأغلفة وأغطية ، وما ينتابها من صمم وعمى وبلادة تجثم على حسها ، جاء ينبه إلى ذلك فيما لا نرى له مثيلا فى كتاب سماوى أو غير سماوى ، وما يريد بذلك إلا تحطيم تلك الأغلاق والأقفال ، وتمزيق تلك الحجب والأغطية ؛ حتى تزول الغفلة الجاثمة على مواهب إدرا كنا العالى ؛ فتزول بزوالها عن القلوب أمية هى شر من أمية العقول فتغدو سميعة بصيرة مدركة ملهمة تقرأ على صفحة كل شىء مالا يستقل العقل العادى وحده بإدرا كه .

وإنك لترى فى مثل قوله سبحانه : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » أنه يشير إلى تلك الأمية القلبية التى تجعل صاحبها يعيش تحت أيات ناطقة بصفات الحق دون أن يعيرها شيئا من التفاته ؛ لأنه لا يحس ولا يبصر ولا يفهم من حقيقة ما يرى شيئا ! !

ولقد يكون أشمل من هذا قوله سبحانه : « وكأىّ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فليس هذا المطموس المحجوب غائبا عن آيات السماء وحدها بل هو غائب كذلك عما يلمسه بجسمه ، ويتفاعل معه بنفسه ، ويمر عليه بقدمه من آيات هذه الأرض ، وإن واحدة منها فضلا عن سائرها الجديرة — لو تأمل — أن تقدح فى قلبه من نور المعرفة والفهم ما يجعله يعكف الدهر على تسبيح خالقها المقتدر العظيم ، ثم يرى أن ذلك قليل فى حقه سبحانه . . . ولكن صاحبنا يمر بها وهو ينظر إليها بعينى راقد ، ويشاهدها وكأنه غير مشاهد ، فهو والبهيمة العجماء سيان صدق عليه ما وصفه الله سبحانه به : « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

فنحن بإزاء أمية غليظة تطمس على سمع القلب وبصره ؛ فلا يرى الكائنات حوله إلا صحفا غفلا مبهمة ، وشخوصا فارغة مستعجمة لا توحى بشىء ، ولا تعرب عن معنى . . . وحسبك من شر هذه الأمية أنها لا تدرك ما هو من قبيل البدهيات ! !

أليس من البدهيات أن لكل مصنوع صانعا ، ولكل مخلوق خالقا ؟

فهل استطاعت تلك الأمية أن توحى إلى صاحبها نسبة تلك الكائنات إلى موجدها ، وتكشف له طابع الخالقية على كل شىء حوله ؟

فذلك المرض — مرض الذهول عن البدهيات الأصيلة — هو مظهر هذه الأمية ، أو هو نفسه تلك الأمية . والمفتاح الذى تفتح به أقفالها . هو تأمل المرء فيما حوله ؛ فإذا رأى شيئا رأى معه نسبته إلى موجده ، وقرأ على صفحته طابع الخالقية الذى يذكره بالخالق جل ثناؤه ، وإلى هذا التأمل والاعتبار يشير قوله سبحانه : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

فإذا انكشفت ظلمات تلك العجمة عن القلب استطاع أن يقرأ فى كل شىء — بعد صفة الخالقية — الكثير من صفات الله تبارك وتعالى .. يقرأ قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وهيمنته ، وكرمه ، وفضله ، وافتقار الناس إليه ، واستغناءه عن كل شىء ، وقيامه على الكائنات يمسكها أن تزول ويضبطها فى نواميسه .لا تأخذه سِنة ولا نوم وهو العلى العظيم ... يستطيع أن يقرأ ذلك وسواه من صفات الله المتجلية فى كل ما خلق .

وصفات الله سبحانه هى مصابيح القلوب ، لأنها صفات الحق فإذا سطعت على قلب ما وصلته بربه وهدته سبله إليه فلا يضل ولا يشقى .. وهذا الكلام يفضى بنا إلى أبواب من المعارف ، وآفاق من الحقائق لا مجال هنا لبسط القول فيها . ويكفى أن نشير إلى أن صاحب هذا القلب الموهوب يستمد من فطرته مالا يستمد من بطون الكتب والمجلدات؛ فما استبهم عليه أمر ، وأعوزه رأى سديد إلا امتد إليه شعاع من أفق غيبى يسطع عليه بالطمأنينة والتوجيه الهادى إلى الصواب .. ولن تجد أصول العمران الحق ، وقواعد النظم الفاضلة ، وحقوق الأفراد والجماعات الأصيلة ، لن تجد ذلك سافرا مشرقا بل بارزا متوهجا إلا فى فطر هؤلاء الذين استقرت أسرار صفات الله فى خفايا نفوسهم ، فكانت لهم مدد كل خير وهداية .

وتلك منزلة من العلم لا يتوقف بلوغها على التلقى من معلمى المدارس أو أساتذة الجامعات ، بل سبيلها أن يقرأ القلب اللقن السليم فى الكتاب المنشور الذى يستطيع أن يقرأه العالم والجاهل ، والأمى وغير الأمى : كتاب الوجود الذى إحدى دفتيه السماء والأخرى الأرض ، وصفحاته الكائنات ، وسطوره مافى تلك الكائنات من إيحاء ودلائل على الله سبحانه ؛ فمن قرأ فقد استدرج أصول العلم والهدى بين جنبيه ، لاباسم معلم من الناس ؛ ولكن باسم الله الذى خلق كل شىء ، ومن لم يقرأ فلن يكون فى قلبه أثارة من ذلك النور الهادى ، والعلم الحق ؛ ولو قضى فى الجامعات ما قضى من سنين ، ونال من إجازاتها العلمية ما نال ، وهذا هو فارق ما بين أمية القلب وأمية القراءة والكتابة ، وهو الذى يبدو فيما يبدو من معانى قوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق .. » فإنا لا نحسب أن الله أراد بها قراءة الحروف والرموز ، ولا أنه أراد معنى التلاوة فحسب ؛ بل أراد أن يرشد إلى أوسع آفاق القراءة ، ويبثّ فى قلب رسوله سرها المعين عليها حتى لا يكون فى الناس من هو مثله أو أقرأ منه لآيات الله ، أو حتى لا تكون فطرته الموهوبة هى وحدها مدد قراءته فجاء الوحى

من لدنه سبحانه بسر يظاهر سر الفطرة على استكناه ما تقرأ إلى ما أُكرم به من أسرار النبوة ، وعلم الرسالة صلى الله عليه وسلم .

وإنك لترى ما أُمد به عليه السلام من طاقات القراءة فيما أثر عنه من ذكر الله سبحانه على كل حال ، فقد كانت تطالعه دلائل قدرته ، وآثار رحمته من خلال كل شيء ، وكانت تلك الدلائل والآثار تحدث فى نفسه من صيغ الذكر ما يتسق وإياها ؛ فكسوف الشمس آية من آيات الله وله حيالها ذكر خاص ، وخسوف القمر ، ونزول المطر ، وإقبال الريح لا يرى فيها قلبه وعقله إلا تدبير الخالق سبحانه فلا يكون له من رجع إلا صيغة ذكر تناسب المقام ، وتعطر الأفق ، وتحيي موات القلوب .

وإذا دخل السوق ، أو أقبل على مدينة ، أو خرج منها ، أو مضى إلى سفر ، أو عاد منه ، أو أوى إلى فراشه ، أوتقلب فيه ، أو استيقظ من نومه ، أو لبس ثوبه ، أو رفع الماء إلى فيه ، أو قرب إليه طعامه ، أو كان فى غير ذلك ؛ كان له فى كل حال مشاهد لفضل الله يجيش بها قلبه ، ويهتز لها وجدانه ، ويترجمها لسانه بما يلائمها من صيغ الذكر .

ذلك الضرب الخطير من القراءة القائم على لقانة القلب لا نستطيع أن نغفله ونحن نقرأ قصة نزول الوحى بقوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . . » قال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم : (فكأن الله يقول : كن قارئاً بقدرتى وبإرادتى . . . وإنما عبر بالاسم « اسم ربك » لأنه دال على ما تعرف به الذات ... وخلْقُ القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعا ؛ لأن القراءة علم فى نفس حية فهى تخطر ببالك من الله وجودَه وعلمَه وقدرته وإرادته)

ومهما تحدثنا عن جلال شأن هذه القراءة فلن نبلغ من تجلية حقيقتها شيئا ، ويكفى أنها ترشح صاحبها لمقام النبوة والرسالة دون حاجة منه إلى قراءة الرموز والمصطلحات ، فإن لم تكن نبوة جاز أن ترشحه لمقام الهداية والإرشاد والإصلاح ، وكان إذعان الناس له قائماً على ما عرفوا لديه من الحق لا ما عرفوا له من علم محفوظ أو قول منقول .

وهل يكون لأحد من الناس حجة على الله بعد أن أرسل من أرسل من الرسل ، وبعد أن نشر أمام أبصارهم وبصائرهم شواهد قدرته ، ودلائل علمه وحكمته وإرادته ، يقرؤها كل مكلف فى سهولة ويسر ، ويحصّل من عبرها ونورها ما به صلاح أمره مع الله والناس ، وفوزه بالنجاة فى الدنيا والآخرة ؟

في ظلال القرآن

للأستاذ سيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

«الم . ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ . هُدًى لِلمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون . أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ .

إِنَّ الذينَ كَفَرُوا سَواءٌ عليهمْ أأنْذَرْتَهم أمْ لمْ تُنْذِرهمْ لا يُؤْمنون . خَتَمَ اللهُ عَلَى قلوبِهم وَعَلَى سَمْعِهم ، وَعَلَى أبصارِهِمْ غِشاوَةٌ ، وَلَهمْ عَذابٌ عظيمٌ .

وَمِنَ الناسِ مَنْ يقولُ آمنَّا باللهِ وباليوم الآخِرِ ، وَماهُمْ بِمؤْمِنين . يُخادِعونَ اللهَ وَالذينَ آمَنوا ، وما يَخْدَعونَ إلاَّ أنفسَهُم وما يَشعُرون . فِي قلوبِهم مَرَضٌ فزادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ، ولهمْ عذابٌ أليمٌ بما كانوا يَكْذِبُون . وإذا قيلَ لَهمْ : لاتُفْسِدُوا في الأرض ، قالوا : إنما نَحْنُ مُصْلِحون . ألاَ إنّهم هُمُ المُفسدون ، ولَكِنْ لايشعرون . وإذا قيل لهم : آمِنُوا كما آمنَ الناسُ قالوا : أنؤْمِنُ كما آمنَ السفهاءُ . ألاَ إنَّهُم هم السُّفهاءُ ولكنْ لاَ يعلمُون . وَإذا لَقُوا الذينَ آمنوا قالوا : آمنَّا ، وإذا خَلَوْا إلى شياطينِهمْ قالوا : إنَّا مَعَكُمْ ، إنما نحنُ مُسْتَهزِئون . اللهُ يَستَهزئُ بهم ، وَيَمُدُّهُمْ في طُغيانِهم يَعْمَهُون . أُولئكَ الذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى ، فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهم وما كانوا مُهْتَدِين » .

***

فى هذه الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ترتسم ثلاث صور ، لثلاثة أنماط من النفوس ، كل نمط منها نموذج حيّ لمجموعات ضخمة من البشر . نموذج أصيل عميق ، متكرر فى كل زمان ومكان ؛ حتى لا تكاد البشرية كلها — فى جميع أعصارها وأقطارها — تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة . . .

وفى هذه الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ، ترتسم هذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . لا يبلغ الوصف المطول ، والإطناب المفصل شيئا وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع .

ولقد بدأت السورة بتلك الحروف الثلاثة : « ألف . لام . ميم » بوصفها مبتدأ خبره : « ذلك الكتاب لاريب فيه » فمن نوع هذه الحروف ومن جنسها يتألف ذلك الكتاب ، ومن هذه الأصوات المألوفة يتكون . . ولكنه مع هذا نسيج وحده ؛ وذلك هو الإبداع ، وذلك هو الإعجاز . وذلك مثل صنع الله فى كل شيء وصنع مَن دون الله . . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الإنسان هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز . كائنا فى دقته ما يكون . . ولكن الله المبدع يصوغ من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة ، تنطوى على ذلك السر الإلهى المعجز الذى لا يستطيعه بشر كائنا من كان .. وهكذا القرآن حروف وكلمات . يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويصوغ منها الله قرآنا وفرقانا . . والفرق ما بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسم الخامد ، والروح النابض . . « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »

ذلك الكتاب . . . هدى للمتقين . . وهنا يأخذ فى رسم الصورة الأولى . . المتقين : « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » . . . والتقوى شعور فى الضمير ، تنبثق عنه صفات وأعمال وتصرفات . وتتوحد فيه المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة . يتوحد فيه الإيمان بالغيب الذى لا تدركه الحواس ، ولا يحيط به الفكر ، ولكن تلمسه البداهة ، وتستشفه الروح ، وتطلع عليه البصيرة ، ويدركه الإنسان بكيانه كله فى ومضة . وقد يعز عليه برهانه فى مجال المنطق الجدلى ، لأن برهانه مستقر فى كيان الإنسان كله ، متلبس بأعماق الضمير . يتوحد فيه الإيمان

بالغيب على هذا النحو بإقامة الصلاة عبادة لله ، وبالإنفاق شكرا على نعمته ، وبرا بخلقه ، وتضامنا بين عباده . . ويتوحد فيه الإيمان كذلك بالرسالة الإلهية كلها ، فى جميع أطوارها وحلقاتها : « والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك » . . . فهذه حقيقة الإسلام الأولى : الوحدة الكبرى . وحدة الخالق بلا شريك . وحدة الدين والغاية . وحدة الرسل والبشرية . وحدة الشعور والسلوك . وحدة الدنيا والآخرة : « وبالآخرة هم يوقنون » .

ومن خلال هذه اللمسات السريعة ، تنتفض الصورة الحية . صورة المتقين . إحدى الصور الثلاث التى ترتسم فى تلك الكلمات القلائل ، والأسطر المعدودات .

فأما الصورة الثانية فتلك صورة الكافرين . . فإذا كان الكتاب بذاته هدًى للمتقين . فالإنذار بالكتاب وعدم الإنذار سواء بالنسبة للكافرين . إن المنافذ المتفتحة فى أرواح المتقين . المتفتحة للإيمان بالغيب والإيمان بالآخرة ، والإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى رسله جميعاً . . هـذه المنافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا ، فيستوى الإنذار إذن وعـدم الإنذار : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ختم عليها فلا حس ولا شعور : « وعلى أبصارهم غشاوة » فلا نور ولا بصيص من نور . . إنها صورة صلدة مظلمة جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار .



ثم ننتقل إلى الصورة الثالثة — أو النموذج الثالث — فماذا نرى :

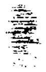
إنها ليست فى شفافية الصورة الأولى وسماحتها ، وليست فى غلظ الصورة الثانية وصفاقتها . ولكنها تتلوى فى الحس ، وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين . وطابعها العام هو التلوى والخداع ! إنها صورة المنافقين . .

إنهم « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر . . « وما هم بمؤمنين » إنما هم . « يخادعون الله والذين آمنوا » يظنون فى أنفسهم الدهاء والذكاء . ولكن يا للسخرية التى تنصب عليهم ولما تكمل الآية ، ولما تكمل الصورة : « وما يخدعون إلا أنفسهم . . وما يشعرون » فذكاؤهم أو دهاؤهم ما يزيد على أن يخدعهم وأن يسمهم بالغفلة ! إنهم مخدوعون فى ذات اللحظة التى يظنون أنهم فيها خادعون . إنهم لن يبلغوا أن يخدعوا الله ، الذى خلقهم ومعهم ذكاؤهم أو دهاؤهم !

وإنهم لن يبلغوا أن يخدعوا المؤمنين والله معهم وناصرهم . . وما يزيدون على أن يخدعوا أنفسهم بوهمهم أنهم خادعون الله ، وخادعون من آمنوا بالله « وما يشعرون » !..

ولكن لماذا يحاولون هذه المحاولة . ولماذا يخادعون هذا الخداع ؟ . .

« فى قلوبهم مرض » فى طبيعتهم آفة . فى فطرتهم علة . . الاستقامة والوضوح والسلامة ليست فيهم . إنما هو المرض الذى يفسد الشعور ، ويفسد التصور ، ويفسد السلوك . وهذا ما يحيد بهم عن الطريق المستقيم ، والصدق القويم . فيصرفون ذكاءهم أو دهاءهم فى الاعوجاج والخداع والنفاق : « فزادهم الله مرضا » فالله قد جعل الإنسان قيما على نفسه ، وكلفه اليقظة لمشاعره وسلوكه : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها » والخداع والنفاق يزيدان القلوب مرضاً على مرض « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .



وهم لايقفون عند حد الكذب والخداع ، إنما يضيفون إليهما الادعاء والسفاهة ، بلا حجة وبلا بينة : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض » لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد بل تجاوزوه إلى الادعاء : « قالوا : إنما نحن مصلحون » ! هكذا بلا بينة ولا برهان : « ألا إنهم هم المفسدون » ولكنهم لما فيهم من التواء ومرض « لا يشعرون » ! « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس » الناس الأسوياء الفطرة ، المستقيمو الطبع ، السليمو الوجدان . لم يكتفوا بالاعتذار عن مخالفتهم للناس ، ولكن توقحوا وسفهوا : « قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » هكذا تبجحاً وبذاءة : « ألا إنهم هم السفهاء » ولكنهم لما فيهم من التواء ومرض « لا يعلمون » !

وهم لايقفون عند حد الكذب والخداع والسفاهة والادعاء . إنما يضيفون إليها الضعف واللؤم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » ضعفا عن المواجهة ، وجبنا عن المصارحة « وإذا خلوْا إلى شياطينهم » — من الجن أو الإنس فآمنوا — « قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » وما ينتج المرض والالتواء إلا الضعف واللؤم على السواء . وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، وهو ضعف وخسة . فالقوى ليس لئيما ولا خسيسا ، ولا مرائيا ولا منافقا . والقوى ليس دساساً ولا مستهزئاً بالناس ، وليس غمازاً ولا لمازاً فى الخفاء . . وما أضعف هؤلاء الذين يقولون إنهم مستهزئون : « الله يستهزىء بهم » وما أشقاهم بغفلتهم هذه عن عاقبة ما يفعلون فالله يمهلهم ولا يهملهم : « ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

أولئك كانوا يملكون الهدى لو أرادوا . . ولكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى »

وتركوا النور للظلام فخسروا الصفقة ، وخانهم التوفيق : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

* * *

ولعلنا نلمح أن الحيّز الذى استغرقه رسم هـذه الصورة الثالثة جاء أفسح وأوسع من الحيز الذى استغرقه رسم الصورة الأولى أو الثانية . .

ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعانى : الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة فى اتجاهها . والصورة الثانية صورة النفس المعتمة المستقيمة فى اتجاهها . أما الصورة الثالثة فهى صورة النفس الملتوية المريضة المقلقلة . . وهى فى حاجة إلى مزيد من اللمسات ومزيد من الخطوط حتى تظهر وتبين .



وفى سبيل هذا الغرض يمضى القرآن الكريم يضرب حولها الأمثال التى تكشف عن طبيعة موقفها فى الحياة ، ونظرتها إلى الأشياء ، وعلاقتها بالأحياء :

« مَثَلُهم كمَثَل الذى استوقدَ ناراً ، فلما أضاءتْ ما حولَه ذهبَ اللهُ بنورِهم ، وتركهم فى ظلماتٍ لا يُبصرون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون ..

« أو كصَيِّبٍ من السماءِ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ ، يجعلون أصابعَهم فى آذانِهم من الصواعق حذرَ الموتِ . والله محيطٌ بالكافرين . يكادُ البرقُ يخطَفُ أبصارَهُم ، كلما أضاءَ لهم مَشوْا فيه ، وإذا أظلَم عليهم قامُوا . ولو شاءَ اللهُ لذهبَ بسمعهم وأبصارِهم . إن الله على كل شىءٍ قدير » .

مثل هؤلاء الذين رأوا الهدى فاستحبوا عليه الضلالة « كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. لقد طلبوا النار واستوقدوها . فلما أضاء نورها ما حولهم . لم ينتفعوا هم به وهم طالبوه .. ذلك أنهم حادوا عنه وأهملوه ، والتووا عن أفقه وجانبوه . وإذا كانت الآذان والألسنة والأعين لتلقّى الأصداء والأضواء ، والانتفاع بالهـدى والموعظة .. فهى عندهم لا تؤدى وظيفتها ، ولا تقوم بما خلقت له .. فهم إذن « صم بكم عمى » لا يسمعون ولا ينظرون ولا يفقهون ..

« أو كصيِّب من السماء » هاطل غزير « فيه ظلمات ورعد وبرق » كلما أضاء لهم البرق فرأوا ما حولهم مشوا فيه . وإذا أظلم عليهم وقفوا حائرين . وهم مفزعون

« يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » ولو شاء الله لهم الموت لماتوا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . ولكنه يدعهم لهذه الحيرة يضطربون فيها . اضطرابهم بين الأهواء التى تعصف بنفوسهم ، والالتواء الذى يسلكون طرائقه مع الناس ومع أنفسهم . فلا يصلون إلى استقرار ، ولا يتوجهون فى استقامة ، ولا يعرفون لهم هدفا واضحاً ، ولا يبينون عن وجهة مستقيمة .

وفى هذه الحركة التى تتمشى فى خيوط الصورة ولمساتها : من الصيب الهاطل وما فيه من ظلمات ورعد وبرق . إلى الماشين على ضوء البرق وأصابعهم فى آذانهم من الصواعق . إلى انقطاع البرق وتخييم الظلام ووقوفهم فيه فجأة لا يدرون أيان يذهبون . فى هذه الحركة صورة مقابلة لحركة نفوسهم ، وتقلباتهم بين المؤمنين والشياطين . بين ما يقولونه باللسان وما يخفونه فى الجنان . بين ما يعتقدونه فى أنفسهم من الدهاء وما يطلبونه لأنفسهم من الاستعلاء ، وبين ما يرتكسون فيه من ظلام وما ينتهون إليه من بوار ... « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .

* * *

والآن بعد استعراض هذه الصور الثلاث نعود إلى الصورة الأولى . الصورة التى كتب الله لأهلها الفلاح : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ... نعود إليها لنتملى خصائصها ومقوماتها من زاوية أخرى ، ولنرى مدى أصالتها فى الحياة وكرامتها .

... المتقين ... « الذين يؤمنون بالغيب » ما قيمة هـــذه السمة فى الحياة وما جدواها ؟ قيمتها هى صيانة الطاقة العقلية عن التبدد والتمزق فيما لم تخلق له ، ولم تعط القدرة عليه ، ولا يجدى أن تنفق فيه . . إن الطاقة العقلية موكلة بهذه الحياة الواقعة المحدودة ، تنظر فيها ، وتتعمقها وتتقصاها ، وتعمل وتنتج ، وتنمى الحياة وتجملها . . وفى هذا يجدى الجهد وتتحقق الفائدة . فأما محاولة استجلاء الغيب ووزنه بموازين العقل المحدود الطاقة ، فهى ذاتها محاولة أن يكون الإنسان إلها ، وأن يصير الفانى خالداً ، والمخلوق أزليا . محاولة الجزء أن يدرك الكل . محاولة الفرد الذى يولد اليوم ويموت غداً ، أن يعرف ما يعرفه الخالق الذى لا بداية له ولا نهاية لوجوده . . وهى محاولة فاشلة أولا ، ومحاولة عابثة أخيراً . فاشلة لأنها فوق الطاقة . وعابثة لأنها تبدد الطاقة . ومتى سلم العقل البشرى بالبديهية الأولى ، وهى أنه جزئى ، محدود بالزمان والمكان ، مقيد بالحس والتجربة ، والتصور والقياس الناشئين من

الحس والتجربة .. متى سلم بهذه البديهية الأولى لزمه — إحتراما لمنطقه ذاته — أن يسلّم بأن إحاطته بالكل مستحيلة ، وأن إدراكه للمطلق مستحيل ، وأن عليه أن يكل الغيب لصاحب الغيب ، وألا ينفيه لمجرد أن وسائله هو لا تحيط به .. وقيمة هذا التسليم هى أن يعمل العقل فى الحقل الذى يدركه وينتج فيه . وألا يغتر بنفسه فيجعل من ذاته إلها ، ومن تصوراته دينا ، ومن مقولاته شريعة .. لأنه عرضة للخطأ والضلال ، ما لم يستند إلى العقل الأكبر ، إلى الله ذى الجلال .

« ويقيمون الصلاة » . . ما قيمة هذه السمة فى الحياة ؟ قيمتها التوجه إلى الخالق دون المخلوقين . التوجه إلى القوة المطلقة بغير حدود . قيمتها الاعتزاز بالله على العبيد . قيمتها تذكر هذا الخالق القادر بين آونة وأخرى ، والرجوع إليه بين فترة وفترة . قيمتها أن يحس الفرد الزائل الفانى صلته بالله الخالد الباقى . . فإذا لحياته غاية ، وإذا لضعفه قوة ، وإذا لحدوده امتداد .

« ومما رزقناهم ينفقون » .. ما قيمة هذه السمة فى الحياة ؟ قيمتها الاعتراف بنعمة الرزق ، والبر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عباد الخالق . قيمتها الشعور بالآصرة الإنسانية وبالأخوة البشرية . قيمتها تطهير النفس من الشح ، وتزكيتها بالبر ، قيمتها أن تردّ الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن ، وأن تؤمّن العاجز والضعيف والقاصر ، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس ، لا بين مخالب وأظفار ونيوب . . !

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . . وهذه ماقيمتها كذلك ؟ قيمتها هى الشعور بوحدة البشرية ووحدة دينها ووحدة رسلها . قيمتها هى تنقية الروح من العصبية الذميمة ضد الديانات وأصحاب الديانات . قيمتها هى الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول عهودها وأحقابها قيمتها هى الاعتزاز بالهدى الذى تتقلب الأيام والأزمان ، وهو ثابت مطرد ، كالنجم الهادى فى خضم الظلمات .

« وبالآخرة هم يوقنون » وهذه خاتمة السمات . الخاتمة التى تربط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء . والتى تشعر الإنسان أنه ليس لقًى مهملا . وأنه لم يخلق عبثا . وأن العدالة المطلقة فى انتظاره ؛ تكمل له جزاءه ، وتحقق له مافاته منه فى الدار الأولى . ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفىء إلى عمله الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته فى نهاية المطاف . .

ثم تتضام هذه السمات وتتلاقى ، لتؤلف كلها بخطوطها الظاهرة ، وخيوطها الخفية

تلك الصورة المستقيمة النقية : صورة المتقين . . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . .

* * *

وعند ما يتم استعراض تلك الصور الثلاث من صور الناس ، يرتد السياق فى القرآن نداء للناس كافة ، وأمراً للبشرية جمعاء ، أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة . الصورة النقية العاملة النافعة ، الصورة المهتدية المفلحة الناجحة : صورة المتقين :

« يا أيها الناسُ اعبدوا ربكمُ الذى خلقكمُ والذينَ منْ قبلكمْ لعلكمُ تتقونَ »

لعلكم تصيرون إلى هذه الصورة المختارة من صور البشرية . صورة العابدين لله المتقين الله . .

« الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماءً ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . .

وفى هذا النداء تبرز كليتان من كليات الفكرة الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان : وحدة الخالق ووحدة الخليقة . « الذى خلقكم والذين من قبلكم » : ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة والإنسان « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » فهذا الكون : أرضه مخلوقة لهذا الإنسان ومن سمائه ينزل الماء الذى تخرج به الثمرات رزقا لبنى الإنسان . والله خالقه خالق الأولين والآخرين ، ورب العالمين أجمعين : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .

ذلك البرهان الكونى المحسوس ، يتبعه فى السياق برهان آخر عقلى ، مصحوب بالتحدى ، منظور فيه إلى افتتاح السورة بتلك الحروف : « الم : ذلك الكتاب لاريب فيه » ليتقصّى فى النفوس مظان الريب ومواقع الشكوك :

« وإنْ كنتم فى ريبٍ مما نزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثله ، وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين »

فذلك الكتاب المعجز مصوغ من تلك الحروف التى فى أيديكم . فإن كان بشر مستطيعا أن يصوغ منها مثله ، فدونه فليفعل :

« فإنْ لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقُوا النارَ التى وقودُها الناسُ والحجارة أعدّت للكافرين » .

« وقودها الناس والحجارة » فيم هذا الجمع بين الناس والحجارة فى هذه الصورة المفزعة الرهيبة ؟ إن الذى لا يفىء إلى الحق بعد البرهان الكونى المحسوس ، والبرهان العقلى البارز ، والتحدى والعجز الواقع .. إن الذى لا يفىء إلى الحق بعد هذا كله حجر من الحجر ، وإن بدا فى صورة إنسان من الناس ! فهو والحجر سواء فى التحجر وفقدان الحساسية ، وجمود الشعور . إنهما وقود النار : الناس من هذا الطراز والأحجار : الأحجار التى لم يتعارف الناس على أن تكون وقوداً . ولكنها تجىء هنا فى الصورة لتظهر ضراوة هذه النار ، التى تذيب الحجارة ، حتى لتصبح لها وقودا .

وفى مقابل هذه الصورة المفزعة . صورة النار التى وقودها الحجارة . فى مقابل هذا المشهد يعرض السياق مشهداً آخر . مشهد النعيم الذى ينتظر المؤمنين .

« وبشّرِ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أنّ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ، كلما رُزقوا منها من ثمرة رزْقاً قالوا : هذا الذى رزقنا من قبلُ ، وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ ، وهم فيها خالدون » .

ومن شاء فليختر . أجل لتكن الخيرة بين النار التى وقودها الناس والحجارة . . والجنة التى تجرى من تحتها الأنهار . والتى يرزقُ فيها المؤمنون بلا كد ولا نصب . « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » متشابها فى المظهر ، مختلفا فى المذاق . كى تكون المفاجأة بمخبره بعد تشابه مظهره ، أقوى أثراً ، وأعمق وقعا ، وأدعى للفرحة به وللذة جميعاً .

إن هذا التشابه فى الشكل مع التنوع فى المزية سمة واضحة فى صنع البارىء تعالى . . الناس كلهم ناس من ناحية قاعدة التكوين : رأس وجسم وأطراف . لحم ودم وعظام وأعصاب . عينان وأذنان وفم ولسان . ذرات حية من نوع الذرات الحية . تركيب متشابه فى الشكل والمادة . . ولكن أين غاية المدى فى السمات والمزايا ؟ إن فارق ما بين إنسان وإنسان — على هذا التشابه — ليبلغ أحيانا أبعد مما بين الأرض والسماء من آماد . . وهكذا يبدو التنوع فى صنع البارىء هائلا يدير الرؤوس : التنوع فى الأنواع والأجناس ، والتنوع فى الأشكال والسمات ، والتنوع فى المزايا والصفات . . وكله . كله . مردّه إلى الذرة الواحدة المتشابهة التركيب والتكوين . .

ألا جلت قدرة الله ، ألا علت حكمة الله ! . ألا سبحانك اللهم سبحانك . لك الأمر بيدك الخير . . إنك على كل شيء قدير . .

مقارنة بين أسلوبي القرآن والحديث

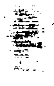
لفضيلة الأستاذ مصطفى الزرقا

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق السورية

الفرق عظيم جداً بين أسلوب الحديث النبوى وأسلوب القرآن فى طريقة البيان العربى ، فبينهما شقة واسعة لايشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها وبالمأثور المألوف من بيانها قديمه وحديثه .

وإن هذا التفاوت الكبير فى الأسلوبين إذا أنعم الإنسان فيه النظر — وكان ذا ملكة بيانية — لا يترك لديه مجالا للشك والريبة فى أن الحديث النبوى والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين .

فالحديث النبوى كما سنرى من نصوصه التى سنعرض أمثلتها قريباً جاء كله على الأسلوب المعتاد للعرب فى التخاطب ، تتجلى فيه لغة المحادثة ، والتفهيم والتعليم والخطابة فى صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها ، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض. ولكنه يتميز عن الكلام العربى المألوف بأن فيه لغة منتقاة غير نابية ، وأن فيه إحكاما فى التعبير وجمعا للمعانى المقصودة بأوجز طريق وأقربه دون حشو؛ مما استحق به التسمية بجوامع الكلم . فهو كلام عربى من الطراز المعتاد المألوف ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة .



أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لايجد الناظر فيه والسامع شبهاً له فيما يعرف من كلام العرب وأساليبهم . يعالج الكليات ، ويفرض الأحكام ، ويضرب الأمثال ، ويوجه المواعظ ، فى عموم لا تشبهه العمومات المألوفة ، وخطاب فيه من التجريد ما يجعل له طابعاً خاصاً منقطع النظير .

فلو أُخذ قانون تشريعى وقورن بأحكام القرآن الآمرة الناهية لما كان له به شبه فى الأسلوب أصلا ولو اتحد موضوع الأمر والنهى فيهما ، وإذا أُخذ كتاب تاريخ وقورن بما فى القرآن من قصص تاريخى لما وجد أيضاً بينهما شبه فى الأسلوب ولو أنهما عالجا قصة واحدة .

ولو أُخذ كذلك كتاب مواعظ وأخلاق وقورن بما فى القرآن من مواعظ لما كان بينهما أيضاً شبه أصلا فى الأسلوب ولو اتحد الموضوع . وهكذا لايمكن أن يجد

الباحث كلاماً أو كتاباً فى اللغة العربية يمكن أن يتحد أو يتشابه أسلوبه مع أسلوب القرآن . فهو صورة جديدة مبتكرة فى البيان العربى جارية على قواعد العرب وطريقتهم فى التركيب ، ولكنه يختلف عنها كل الاختلاف فيما نسميه بالأسلوب ، بحيث أنك لو خلطت سورة أو جملة آيات بمجموعة أخرى من الكلام العربى لاستطعت أن تميزها منها بسهولة .

أما الحديث النبوى فكثيراً ما يشبه أسلوبه أسلوب سائر الأقوال والحكم المأثورة إذا كانت بليغة ؛ ولذلك كثيراً ما توضع الأحاديث كذباً على لسان رسول الله عليه السلام فتشتبه من حيث لفظها ومعناها على السامع ، ولا يمكن البحث عن أصالتها وصحتها إلا عن طريق السند .

ومن المسلّم به لدى أهل البصر الأدبى أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان فى بيانه يختلفان اختلافاً كبيراً أحدهما عن الآخر ويجرى كل منهما فى ذاته على نسق متشابه لا يختلف فى درجة بلاغته وطريقته ويختلف عن أسلوبه الآخر اختلافاً كلياً ؛ فهذا مما لم يُعهد فى التاريخ الأدبى المعروف . بل إذا أراد أحد الكتاب أن يخرج عن الأسلوب الذى هو متميز فيه إلى أسلوب آخر فلابد أن يظهر فيه التكلف ، ولا يمكن أن يتقن ذلك الأسلوب الثانى ، فما بالك بهذا التفاوت الكلى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث ؟

فمن يتوهم من الأجانب أن القرآن هو مجموعة من تأليف النبى عليه السلام إلى جانب أحاديثه إنما منشأ وهمهم هذا عدم إمكانهم أن يتذوقوا الفارق العظيم بين الأسلوبين لكى يعرفوا إمكان وحدة المصدر فيهما أو اختلافه .

وهذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى والذى يوجب الحكم باختلاف مصدرهما يتجلى واضحاً لكل ذى إدراك فى الأسلوب العربى وذوق فى لسان العرب من المقارنة بالأمثلة الواردة منهما فى موضوع واحد :

فلو أننا أخذنا من القرآن آيات ومن الحديث النبوى أحاديث فى موضوع تلك الآيات نفسه لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافى .

١ — فلنأخذ مثلا قول القرآن العظيم فى موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ولننظر مقابله فى نفس المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

« لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

٢ — ولنأخذ مثلا فى موضوع الإخاء فى الدين قول القرآن العظيم فى سورة الحجرات :

« إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولننظر مقابله فى نفس المعنى قول النبى عليه السلام :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُه » .

ومعنى (يسلمه) أن يتركه لعدوه فلا يحميه ولا يمنعه منه .

٣ — ولنأخذ أيضاً قول القرآن العظيم فى موضوع الإخاء الإنسانى العام والتآلف والتعارف والتفاضل بالتقوى والصلاح لا بالعرق والنسب ولا بالمال والنشب :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

ولننظر فى نفس المعنى أقوال النبى عليه السلام التالية :

« أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » .

« من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

« المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

٤ — ولنأخذ أيضاً قول القرآن العظيم فى ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات :

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تعقلون » .

ولننظر فى مقابله قول النبى عليه السلام .

« إقامة حدّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا » .

وهكذا إذا تقصينا الموضوعات والمعانى التى وردت فى القرآن وفى الحديث معاً نجد

بينهما فى الأسلوب العربى هذا البون الكبير الذى يجزم معه كل ذى بصر وإنصاف أن شخصاً لا يمكن أن يصدر عنه هذان الأسلوبان معاً ولكل منهما طابعه الخاص البعيد كل البعد عن الآخر وكل منهما فى ذاته وفى جميع أمثلته ونصوصه متشابه لا يختلف بل يجرى على غرار واحد فيحافظ على طريقته المتميزة وعلى اختلافه عن غيره ذلك الاختلاف الكبير .

وإنه ليتجلى من هذه الأمثلة المقارنة ومن نظائرها ما أشرنا إليه آنفاً من أن أسلوب الحديث النبوى هو أسلوب التخاطب العادى المألوف بين العرب فى بيانهم وأحاديثهم ومحاوراتهم وحكمهم وأحكامهم ووصاياهم ونصائحهم ، لا يخرج عن هذا السنن المألوف بينهم ، وإنما يمتاز بأنه من جوامع الكلم ومن حكيم البيان وفصيح اللغة وبخلوه من الحشو ومن الصور الخطابية العاطفية التى تعتمد على العاطفة وحدها دون العقل. وبتعبير آخر أنه يتجلى فى أسلوب الحديث النبوى العقل الناطق بأبلغ وأوجز أسلوب معتاد .

أما أسلوب القرآن فيتجلى فيه الابتكار الذى لم يعهد له مثيل ، ولا يشبهه شىء من كلام العرب فى طرائف بيانه ومناهج خطاه .

هذا ، وإذا كان كل أسلوب بيانى يشف عن ذاتية وشخصية خاصة فى المتكلم ، فإن من وراء ذلك التفاوت العظيم فى أسلوبى القرآن والحديث النبوى من الوجهة البيانية يستشف القارىء والسامع تفاوتاً أعظم منه فى تلك الذاتية التى ينبىء عنها الكلام .

فعند ما تسمع القرآن تتجلى لك من خلال آياته ذاتية تتكلم من جو علو وقوة ، وسطوة وقدرة ، وحكمة ورحمة . وهذه الذاتية القوية العظمى التى تتجلى من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى فى المواطن التى تعبر فيها عن الرحمة ، وإن قوتها واحدة فى جميع سوره وآياته ، فهى دائماً ذاتية جبارة قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة ، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب ، ذات سلطان مطلق .

فانظر وتصورها مثلا من خلال نحو الآيات التالية .

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض »

« الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

« وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

أما الحديث النبوى فإنك تستشعر من وراء أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعتريها الضعف والقوة ، ولكن قوتها من لون آخر : ففيها ضعف الذات العاجزة أمام الصعوبات القاهرة تارة ، وفيها قوة الثقة بالحق تارة أخرى . فكثيراً ما تشعر من أسلوب الحديث النبوى بشخصية تعتز بهذا الضعف الذاتى أمام الله إلى جانب اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق . ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد ، إلى جانب حكمة الحكماء وقوة المبلغين الأمناء .

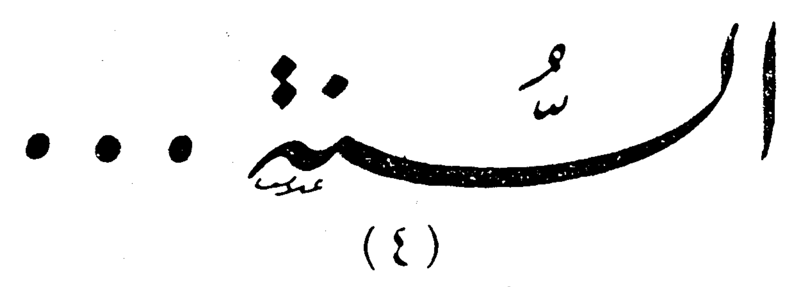


فانظر وتصور هذه الشخصية فى لون قوتها من خلال قول الرسول عليه السلام لعمه أبى طالب : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وتصورها فى شعورها بالضعف الذاتى من خلال الأدعية المأثورة عن النبى عليه الصلاة والسلام فى مناجاة ربه ، كقوله بعد ما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى أم إلى قريب ملكته أمرى . أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل على غضبك ، أو تنزل على سخطك . لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »

وكقوله : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى، وترد بها الفتن عنى » .

وبعد فهذه مقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى إنما نقصد بها الموازنة بين الأسلوبين من الناحية العربية البيانية فقط ، وما توحى به من اختلاف الذاتية والشخصية مما ينبىء باختلاف المصدر، دون النظر إلى النواحى التى يذكرها العلماء والأدباء الباحثون فى وجوه إعجاز القرآن المتعددة ، لأنها تخرج عن موضوعنا هنا .



(٤)

هل حبس عمر أحداً من الصحابة لإكثاره الحديث ؟

المشهور المتردد على بعض الألسنة أن عمر رضى الله عنه حبس ثلاثة من كبار الصحابة لإكثارهم الحديث وهم : ابن مسعود وأبو الدرداء وأبو ذر ، وقد حاولت أن أعثر على هذه الرواية فى كتاب معتبر فلم أجدها ، ودلائل الوضع عليها ظاهرة ؛ فإن ابن مسعود كان من كبار الصحابة وأقدمهم إسلاما ، وله مقام كبير فى نفس عمر رضى الله عنه. حتى أنه حين أرسله إلى العراق امتن عليهم بإرساله إذ قال لهم : « ولقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وكان مقامه خلال خلافة عمر فى العراق ، وإنما أرسله إليها ليعلم أهلها الدين والأحكام . ومن الأحكام ما تؤخذ من السنة فكيف يحبسه عمر لتحديثه وهو إنما أرسله لهذا الغرض ؟ ؟ أما أبو ذر وأبو الدرداء فلا يعلم عنهما كثير حديث . نعم كان أبو الدرداء معلم المسلمين بالشام ، كما كان ابن مسعود فى العراق ، والغرابة فى حبس عمر لابن مسعود تأتى أيضاً فى أبى الدرداء فكيف يحبسه وهو معلمهم ومفقههم فى دينهم ؟ ؟ وهل كان عمر يريد منه ومن ابن مسعود أن يكتما بعض الحديث فيكتما بعض أحكام الدين عن المسلمين . وأما أبو ذر فمهما نقل عنه من حديث فهو لم يبلغ جزءاً مما بلغه أبو هريرة فلماذا يحبسه ولا يحبس أبا هريرة ؟. ولئن قيل إن أباهريرة لم يكن يكثر الحديث فى عهد عمر خوفا منه . قلت لماذالم يخفه أبوذر كما خافه أبو هريرة ؟

والحاصل أن الذين عُرفوا بكثرة الحديث من الصحابة كابن عباس وأبى هريرة وعائشة وجابر بن عبد الله وابن مسعود معهم لم يرو عن عمر أنه تعرض لهم بشىء ، بل روى أنه قال لأبى هريرة حين بدأ يكثر من الحديث أكنت معنا حين كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مكان كذا ؟ قال نعم سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النـــار » فقال له عمر أما إذا ذكرت ذلك فاذهب فحدّث . فكيف يعقل أن يترك أبا هريرة وهو أكثر الصحابة حديثاً على الإطلاق ثم يحبس مثل ابن مسعود وهو أقل من أبى هريرة حديثاً أو مثل أبى الدرداء وأبى ذر وهما لم يعرفا بين الصحابة بكثرة الحديث مطلقاً ؟ .

لقد لبثت كثيراً أشك فى هذه الرواية وأقلبها على جميع وجوه النظر حتى قرأت فى كتاب الأحكام لابن حزم ما يلى : « وروى عن عمر أنه حبس ابن مسعود من أجل

الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبا الدرداء ، وأبا ذر . وطعن في الرواية بالانقطاع لأن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف راويه عن عمر لم يسمع منه وقد وافقه البيهقي على هذا ، ولكن يعقوب بن شيبة والطبري وغيرهما أثبتوا سماعه من عمر . والظاهر أنه لم يسمع منه فإنه مات سنة ٩٩ أو ٩٥ وعمره (٧٥ سنة) فيكون قد ولد سنة ٢٠ من الهجرة في أواخر خلافة عمر فلا يتصور سماعه منه في مثل ذلك السن . وعلى ذلك فلا تكون الرواية حجة ولا يؤخذ بها . . . ثم قال ابن حزم إن الخبر في نفسه ظاهر الكذب والتوليد ، لأنه لا يخلو عن أن يكون اتهم الصحابة وفي هذا ما فيه ، أو يكون نهى عن نفس الحديث وعن تبليغ السنة ، وألزمهم كتمانها وجحدها وهذا خروج عن الإسلام . وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك وهذا قول لا يقوله مسلم أصلا ، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين فقد ظلمهم . فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات الملعونة أي الطريقتين الخبيثتين شاء [1] اهـ »

هل كان الصحابة يشترطون لقبول الحديث شيئاً ؟

١ — روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة أبي بكر الصديق قال : كان أول من احتاط في قبول الأخبار ؛ فروى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث ؛ قال ما أجد لك في كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئاً ، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها الثلث . فقال له هل معك أحد فشهد محمد بن سلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر .

٢ — وروى أيضاً عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن أبا موسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاثا فلم يؤذن له ، فرجع ؛ فأرسل عمر في أثره فقال لم رجعت ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سلم أحدكم ثلاثا فلم يجب فليرجع » قال : لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك ، فجاءنا أبو موسى ممتقعاً لونه ونحن جلوس فقلنا ما شأنك فأخبرنا ، وقال فهل سمع أحد منكم فقلنا نعم كلنا سمعه فأرسلوا معه رجلا منهم فأخبره [2] .

٣ — وروى أيضا عن هشام عن أبيه عن المغيرة بن شعبة أن عمر استشارهم في املاص المرأة فقال المغيرة قضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة ، فقال له عمر إن كنت صادقا فائت بواحد يعلم ذلك . قال فشهد محمد بن سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به .

(١) الأحكام ٢/١٣٩

(٢) وأخرجه مسلم أيضاً

٤ — وروى أيضا عن أسماء بن الحكم الفزارى أنه سمع عليا رضى الله عنه يقول كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى به ، وكان إذا حدثنى غيره استحلفته فإذا حلف صدقته ، وحدثنى أبو بكر — وصدق أبو بكر — قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » .

فهم بعض الباحثين من هذه الآثار أن خطة أبى بكر وعمر فى الحديث أن لا يقبلا حديثا إلا ما رواه اثنان فأكثر وأن خطة على تحليف الراوى ، وانتقل هذا الفهم إلى كثير ممن كتب فى تاريخ التشريع الإسلامى ، وتاريخ السنة فى العصر الحديث ؛ فأصبح عندهم قضية مسلمة لا يذكرون غيرها . وممن ذهب إلى هذا أساتذتنا الأجلاء مؤلفو مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى فقد ذكروا فى باب شروط الأئمة للعمل بالحديث أن هذا كان شرط أبى بكر وعمر وعلى للعمل بالحديث .

والواقع أن بناء هذه القاعدة أو النظرية على تلك الآثار خطأ علمى ترده الآثار الأخرى التى تشهد بأن عمر أخذ بأحاديث لم يروها له إلا راو واحد ، وأن عليا قبل حديث بعض الصحابة دون أن يستحلفه ، وأن أبا بكر روى عنه مثل ذلك وإليكم هذه الآثار .

١ — أخرج الشيخان من طريق ابن شهاب عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عمر خرج إلى الشام فلما جاء « سرغ » بلغه أن الوباء قد وقع بالشام فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » فرجع عمر من « سرغ » قال ابن شهاب وأخبرنا سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر إنما انصرف بالناس من حديث عبد الرحمن بن عوف .

٢ — وروى أن عمر بن الخطاب كان يقول الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من ديته فرجع إليه عمر (١) .

٣ — وروى أيضا أن عمر قال أذكر الله امرأ سمع من النبى فى الجنين شيئاً ، فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال كنت بين جاريتين لى (يعنى ضرتين) فضربت إحداهما

(١) الرسالة للشافعى ٤٢٦ من الطبعة الحديثة ورواه أيضا احمد وأبو داوود والترمذى وابن ماجه ومالك .

الأخرى بمسطح فألقت جنيناً ميتاً فقضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة (وهى العبد أو الأمة) فقال عمر لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره [1] .

٤ — وروى أيضاً أن عمر ذكر المجوس فقال ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم فقال له عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب [2] » .

٥ — وأخرج البيهقى عن هشام بن يحيى المخزومى أن رجلا من ثقيف أتى عمر ابن الخطاب فسأله عن امرأة حاضت — وقد كانت زارت البيت — ألها أن تنفر قبل أن تطهر ؟ فقال لا . قال له الثقفى : إن رسول الله أفتانى فى مثل هذه المرأة بغير ما أفتيت ، فقام إليه عمر فضربه بالدرة وهو يقول : لم تستفتوننى فى شىء أفتى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] ؟ .

٦ — وروى أن عمر رضى الله عنه قضى فى الإبهام بخمس عشرة ، وفى التى تليها بعشر وفى الوسط بعشر ، وفى التى تلى الخنصر بتسع ، وفى الخنصر بست ؛ فلما روى له كتاب عمرو بن حزم الذى ذكر فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وفى كل إصبع مما هنالك عشر من الإبل رجع عن قوله وصار إليه . هكذا جاء فى بعض كتب الأصول وفى فتح الملهم شرح صحيح مسلم لشيخ الإسلام شبير احمد العثمانى الهندى (صفحة ٧) [4] ، ولكن الذى يفهم من الرسالة أن الصحابة اطلعوا على هذا الكتاب عند آل عمرو بن حزم بعد وفاة عمر فعملوا به وتركوا قول عمر .

٧ — وعمل عمر أيضاً بخبر سعد بن أبى وقاص فى المسح على الخفين [5] .

٨ — وأراد عمر رجم مجنونة حتى أُعلم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن ثلاثة فأمر أن لا ترجم [6] » .

هذه الآثار مستفيضة صحيحة رواها الأئمة الأثبات وفيها مايدل دلالة لا تقبل الجدال أن عمر رضى الله عنه أخذ بحديث رواه صحابى واحد دون توقف أو تشكك ، وهى فى العدد أكثر من تلك التى روت أنه طلب راويا آخر ولا تقل فى الصحة والثبوت عنها .

ولما كان عمل الصحابة جميعا على الاكتفاء بخبر صحابى واحد . كان لابد من تأويل

---

(١) الرسالة ٤٢٧ (٢) الرسالة ٤٣٠

(٣) مفتاح الجنة للسيوطى ص ٣١

(٤) وذكر ذلك ابن حزم أيضا فى الأحكام ٢/ ١٣

(٥) فتح الملهم ص ٧

(٦) الأحكام لابن حزم : ٢/ ١٣

ما روى عن عمر مخالفا لعمله فى الروايات الأخرى ، ولعمل الصحابة الآخرين ، وبالرجوع إلى تلك الروايات نجد أن رواية المغيرة بن شعبة فى الإملاص قد رويت من طريق حمل بن مالك أيضا ، وأن عمر قبل خبره من غير تردد . ولم يبق إلا رواية استئذان أبى موسى فلابد من حملها على ما عرف عن عمر من التثبت فى رواية الأخبار وحمل الصحابة على ذلك ؛ فيكون عمر فى قضية أبى موسى وفى قضية المغيرة — لو سلمنا أنه لا معارض لروايته — أراد أن يعطى الصحابة درسا فى التثبت فى قبول الأخبار وروايتها ؛ فإذا كان مثل أبى موسى والمغيرة — وهما من هما فى جلالة قدرهما بين الصحابة — يطلب منهما عمر أن يأتياه براو آخر كان مَن دون أبى موسى والمغيرة من الصحابة وغيرهم من التابعين أحق بالتثبت ، وأجدر بالتروى فى نقل الأخبار وروايتها . هذا هو المحمل الصحيح لما صنع عمر ويدل عليه قوله لأبى موسى : أما أنى لم أتهمك لكنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية أخرى أن أبيا عاتبه فقال له : « إنى أردت أن أتثبت » . وهذا هو ما رآه الشافعى رحمه الله فى الرسالة فى صنيع عمر حين طلب راويا آخر بعد أن ذكر الروايات الثابتة عنه أنه كان يقبل حديث صحابى واحد . قال رحمه الله : أما فى خبر أبى موسى فإلى الاحتياط ؛ لأن أبا موسى ثقة أمين عنده . فإن قال قائل ما الدليل على ذلك قلنا ما رواه مالك بن أنس عن ربيعة عن غير واحد من علمائهم من حديث أبى موسى ، وأن عمر قال لأبى موسى أما أنى لم أتهمك ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله[1] .

هذا ما يتعلق بعمر رضى الله عنه أما موقف أبى بكر فلم يرو عنه أنه طلب راوياً آخر إلا فى تلك الحادثة[2] ، وهذا لا يبرر القول بأن مذهبه ألاّ يقبل خبرا إلا إذا رواه اثنان . ولقد عرضت على أبى بكر حوادث كثيرة رجع فيها إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها أنه طلب ممن أخبر عن رسول الله راوياً آخر يشهد له إلا هذه الحادثة . بل ذكر الرازى فى المحصول أن أبا بكر قضى بقضية بين اثنين فأخبره بلال أن رسول الله عليه السلام قضى فيها . بخلاف قضائه فرجع[3] . فإن صحت هذه الرواية كان ذلك مؤكدا لما ذهبنا إليه ، وقد أخرج ابن القيم عن أبى بكر خطته فى القضاء فقال : « كان أبو بكر إذا ورد إليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى فإن وجد فيه

---

(١) وقد أعلها ابن حزم : ٢/١٤١ بأنها منقطعة فلا تصح

(٢) المحصول للرازى جـ ٢ مخطوط .

(٣) الرسالة ص ٤٣٤ ويرى ابن حزم أن عمر كان يرى ذلك أول الأمر فلما عاتبه أبى رجع عن ذلك وأصبح يقبل خبر صحابى واحد انظر الأحكام : ٢ / ١٤٠ .

ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسوله فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس هل علمتم أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ؛ فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا . فإن لم يجد سنة سنها النبى صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ؛ فإذا اجتمع رأيهم على شىء قضى به[1] » .

والحاصل أننا لا نجد فى نص من النصوص أنه طلب ممن حدثه بحديث عن النبى راويا آخر إلا نص الجدة ، وهذا يحتمل أن يكون من أبى بكر زيادة فى الاحتياط والتثبت فقط . خصوصا وأن توريث الجدة إثبات حكم لم يرد فى القرآن ؛ فكان تشريعا لا بد فيه من الاحتياط والتوقى لا أن ذلك خطة دائبة له وطريقة درج عليها ألا يقبل حديثا إلا إذا رواه اثنان . قال الغزالى فى المستصفى : « أما توقف أبى بكر فى حديث المغيرة فى توريث الجدة : فلعله كان هناك وجه اقتضى التوقف وربما لم يطلع عليه أحد ، أو لينظر أنه حكم مستقر أو منسوخ ، أو ليعلم هل عند غيره مثل ما عنده ليكون الحكم أوكد أو خلافه فيندفع ، أو أظهر التوقف لئلا يكثر الإقدام على الرواية عن تساهل ، ويجب حمله على شىء من ذلك إذ ثبت منه قطعا قبول خبر الواحد ، وترك الإنكار على القائلين به » .

أما خطة على فإن صح ما روى عنه من أنه كان يستحلف الراوى — وأنا أستغرب ذلك — فلا كلام لنا فيه . وإلا فهو فى ذلك كبقية الصحابة ؛ بل لقد نقل عنه صاحب المحصول : « أنه قبل رواية المقداد بن الأسود فى حكم المذى[2] أى من غير تحليف » على أنه فى النص الذى روى عنه لم يستحلف أبا بكر بل قال « . . . وصدق أبو بكر » فلا تكون قاعدة عامة .

والخلاصة أن الثابت الصحيح من عمل أبى بكر وعلى أخذهم بخبر الراوى الواحد فقط ، والحالات التى اقتضت طلب آخر أو استحلافه لا يستلزم ذلك أن يكون مذهبا عاما وخطة مقررة ، وبهذا التوجيه والتحقيق يلتق عمل هؤلاء الصحابة الثلاثة الكبار مع عمل الصحابة الآخرين من حيث اكتفائهم براو واحد .

---

(١) إعلام الموقعين ٥١ .

(٢) المحصول ج ٢ .

(٣) الفصل الرابع من الباب الثاني ص ٨٨ .

ألسنة المفترين

مجازى

للأستاذ محمود محمد شاكر

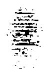
ممّا يُستخرَج به الضّحك أن يحدّثك المحدّث أو الكاتب بشيءٍ سخيفٍ لا يُعقَل، وهو يُبدى لكَ الجدّ كل الجدّ فيما يحدّثُ أو يكتب. ولكنه عندئذٍ لا يريدُ إلاّ إضحاكك. فإذا جاءَ امرؤ يفعَل ذَلك وهو لا يريدُ إلا الجدّ، لأنّه قد بَنَى حديثَه عليه عند نفسه وعند سامعه أو قارئه، فهذا هو الضحك المحزنُ معاً. ولكن من العجيب أن يكون هذا السَّمْتُ الأخيرُ، هو سمْت أكثر الذين يكتبون اليوم فى تاريخ الإسلام. ومن البلْوى أن يأتى هذا فى زمنٍ أصبحنا فيه وأصبح الناس، وكلّ حرف مكتوبٍ يُعدُ عندهم كأنه تنزيلٌ يتلقّونه بالثقة والتسليم لا يكادُ امرؤ منهم ينظر فى مأتاهُ من أين أتى، ولا فى منتهاهُ إلى أين ينتهى. فإذا اجتمع إلى هذه البلوى بلْوى الهوى المخلوط بالغلوِّ، خرجَ الأمرُ كله من الضحِّك والحزنِ، إلى الهلاكِ المطبق الذى يغتال العقول والنفوس جميعاً.

يرى الكاتب ذو الهوى خبراً أو أخباراً، فلا يدفعه هواهُ إلا إلى أخذ أقربها موافقة لهواه، ويمنعُه الهوى من التمييز، ويحمله التعبُّد للحرف المكتوب أن يغمض كلّ بصيرةٍ عن مواضع الدَّخل والغشّ والزَّيْف فيما كُتِب، وتشتدُّ البلوى حين ينتصب لهذا التزوير المدمِّر رجالٌ يلبسون للناس ثيابَ الغيرة على دين ربهم، والحمية لماضى أمتهم، والجهادِ فى سبيل إعزاز هذا الدين بأنفسهم وألسنتهم. وتجتمع عليهم وعلى الناس صواعق الهلاك، حين يخدع عامة الناس أمرُهم، فيتلقوْن عنهم معانى وأحكاماً وأخباراً، وما شئتَ من حصائد الألسنة، على غير هُدًى ولا بيّنةٍ. فيوشك أمر الناس أن ينتهى إلى الردَّة الماحقة، والكفر المستعلِن. كما مضى مثل الأوّلين، الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، حين استنصحوا الأحبار والرهبان فأطاعوهم على غير هدى ولا بينة ولا كتاب منير.

* * *

وقبل أن أفضى إلى الأمثلة التى تبين عن الفساد والضلال، أحبُّ أن يعلم من لم يكن يعلم، أن أسلافنا رضى الله عنهم وغفر لهم، منذ ألفوا كتبهم، وضعوا لها قواعد يعرفها أهل هذا العلم، ويجهلها من جنح عن أصولهم وعمى عليه طريقهم. فهم منذ

بدأوا يكتبون أسسوا كتبهم على إسناد الأخبار إلى رواتها ، وبرئوا من عهدة الرواية بهذا الإسناد ، ولم يبالوا بعد ذلك أن يكون الخبرُ صحيحاً أو ضعيفاً أو زائداً أو ناقصاً أو موضوعا مكذوبا ؛ لأنهم كانوا يعلمون حال الرُّواة ومنازلهم من الصدق والكذب ، ومن الورَع والاستخفاف ، ومن الأمانة والهوى . وكأنهم أرادوا بهذا أن يجعلوا كتبهم في التاريخ وغير التاريخ ، سجلا لما قد قيل في زَمانهم وما قبل زمانهم ، وما كان يقوله قومٌ ، وما كان يقوله آخرون ، مهما تعارض القولان أو اختلفا أو تناقضا . وتركوا للعلماء تمييز الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، على أساسهم المشهور ، وهو معرفة الرجال الذين رووا هذه الأخبار أو تكذّبوها . هذا الطبرى مثلا (توفى سنة ٣١٠) يقول في فاتحة كتابه في التاريخ : « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناهُ عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجها صحيحاً ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يُؤت في ذلك من قِبَلنا ، وإنما أُتى من بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدِّى إلينا » . ومن عرف كتابه وكتب القوم ، علم يقيناً صدق ما يقول ، فإنه يأتى بالخبر لا يصحُّ أبداً ، وبالخبر الصحيح الذى لا شك فيه ، ولا يعرض لهما بتصديق أو تكذيب ، ثم تراه في موضع آخر قد احتاج إلى البيان عن حال هذين الخبرين ، فعندئذ يميز لك ما هو صحيح عنده وما هو باطلٌ من هذين الخبرين . فهو كما قال ، إنما يؤدّى إلى الناس ماأدِّى إليه . وكان الناسُ على عهدهم أهل دين وتقوى ، لا يستحل امرؤ منهم — إلا من ضلَّ — أن يحتج في دين الله ، ولا في تاريخ الناس والحكم عليهم ، بخبر لا يدرى أصدق قائله فيما روى أم كذب . ثم جاء من بعدهم قوم خلطوا عامة الأخبار بلا إسناد إلى رواتها ، فاجتمع الغث والسمين والصحيح والسقيم ، والصادق والمكذوب . ولكن لم يزل دين الناس يعصمهم من شر هذا الخلط المضل ، فأمسكوا ألسنتهم عن الخوض في المطاعن والمثالب بلا بينة ولا حجة . فلما جاء زماننا هذا ، بَشِع الأمر وقبُح . فإن الناس قد هجروا أدب دينهم ، ومروءة أسلافهم ، وعلم كتبهم ، واقتحموا بالجهالة على الظنون المردية ، واستخفهم الهوى حتى أخذوا الباطل وعارضوا به الحق بلا تمحيص ولا رواية ولا فهم . وشابهوا زمن هذه الحضارة الغالبة عليهم ؛ فاجترؤا وتهوروا واستغلظوا معانى وألفاظاً يتقاذفونها في ألسنتهم وكتُبهم ، وقد نفى الشيطان من قلوبهم كلّ معانى الوَرَع ومخافة العذاب يوم القيامة ، حتى قذفوا بالغيب من مكانٍ بعيدٍ ، واجترأوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوهامهم وأهوائهم فأفحشوا القالة فيهم وفيمن تبعهم ، بلا معرفة ولا تخوّفٍ ، وربّ العالمين ينذرهم فيما يتلون من كتابه :



« وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » .

أفتراهم يحسبون أنَّ الله حرّم عليهم أعراض عباده الأحياء ، وأباحَ لهم أعراض عباده الموتى ، بعد أن أفضوا إلى ربهم بأعمالهم وغيبهم وما قدَّموا من حسنات وسيئات ؟ ! ألا فليعلموا أن الميت أولى بأن تكفَّ عنه ألسنة المفترين مِنَ الحيّ ، فإنه لايدفع عن نفسه ، وليتقوا عذاب ربهم ، فإنّ الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه ، يدفع عنه ربُّ العالمين الذى أحصى كل شىء خلقه ثم يحكم بينهم بالعدل وهو العليم القدير .

***

وأعود إلى هذا الكاتب الذى طرح لسانه فى معاوية بن أبى سفيان وأبيه وأمه ، وفى عمرو بن العاص ، وفى عامة بنى أمية ، ووصفهم وصفاً آذاهم بغير ما اكتسبوا . وأنا لن أجادله فى صواب ما يدّعى أو خطئه ، ولن أتعرض لتزييف أحكامه وأحكام أشباهه من الطاعنين بألسنتهم فى أعراض المؤمنين ، حتى يخرجوهم من الدين ، وينسبوهم إلى التغيير والتبديل . بل أريد أن أعرض على الناس بعض ما يروى ، حتى أعرف لم ترك خبراً وأخذ آخر ؟ ولم صدق رواية وأعرض عن أخرى ؟ ولم وضع قاعدة فى أمر ثم أغفلها فى مثله ؟

كان مما جعله من سيئات معاوية رضى الله عنه فى سياسة الحكم توليته يزيد بن معاوية فروى أن يزيد « كان فتى شراب ولهو يبلغ فيه إلى حدِّ التفاهة ، فيعنى بتدليل القرود وتربيتها ، أكثر مما يعنى بسياسة الحكم ومصالح الرعية . . . إلى نزق وطيش وفتون » . ومن المفيد أن أنقل مع هذا أيضا قول قائل آخر فى صفة يزيد « ويزيد هذا شاب خليع لايصلح أن يلى أمر مدرسة ابتدائية ، بله أن يقف على منبر الرسول ، ويحل مكان أبى بكر وصحبه » .

وما كنت أظن قط أن عاقلا يرتضى لنفسه مثل هذا الزلل ، فإن معاوية عند هؤلاء إنما دبر الأمر تدبيراً هو وعمرو بن العاص وأشباههما (كما يقول) ، حتى يأخذ الخلافة فيجعلها ملكا عضوضاً لبنى أمية أو بنى عبد شمس . فالذى يفعل ذلك ، ويستخلص الملك لنفسه وأهله من جمهور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقيم عرش بنى أمية على أكبر رقعة من الأرض متباعدة الأطراف ، لايفعل ذلك إلا وهو يريد المحافظة

على هذا العرش وحياطته وتدبيره حتى يصبح ملكاً متوارثاً فيما يزعمون . هذا صريح العقل فيما أظن . فهب أن معاوية رضى الله عنه كان فاسد الدين مبدلا مغيرا مفتاتاً على أهل الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، أفكان أيضا فاسد العقل والتدبير ؟ ولو كان فاسد العقل والتدبير ، فكيف استطاع أن يصل إلى حكم أهل الشام عشرين عاماً فى ولايته وعشرين أخرى فى خلافته ؟ وأى فساد فى عقل إنسان يجاهد بسوء نيته عشرين عاماً لإقامة ملك عضوض ، ثم يورث هذا الملك شابا يصفه واصف بأنه فتى لهو وشراب يبلغ إلى حد التفاهة ، يعنى بتربية القرود وتدليلها أكثر مما يعنى بسياسة الحكم ومصالح الرعية ، إلى نزق وطيش ! ! ويصفه آخر مثله بأنه شاب خليع لايصلح أن يلى مدرسة ابتدائية بله أن يقف على منبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويحل محل أبى بكر وصحبه (رضى الله عنهم) ! ! أليس هذا عجباً عاجباً ؟ ولكن لا عجب فى زماننا مع الأسف ! ولا عجب مع اللجاجة والهوى وافتراء الألسنة وتهور الأقلام ! ومن العبث عندى أن يجادل المرء أمثال هؤلاء . وسأتناول الآن كتابا للبلاذُرِى (توفى فى نحو سنة ٢٨٠) ، ويقول عنه مؤرخوه إنه كان « عالماً فاضلا شاعراً راوية نسابة متقنا ، وكان مع ذلك كثير الهجاء بذىء اللسان أخذ الأعراض » . فإذا البلاذرى هذا الذى وصفوه بما وصفوه ، يروى فى أول ترجمته ليزيد بن معاوية عن رواة وصفهم علماء الرجال بأنهم من الكذابين والوضاعين ومن المتشيعين الغلاة فيقول :

« كان يزيد بن معاوية أول من أظهر شرب الشراب ، والاستهتار بالغناء والصيد ، واتخاذ القيان والغلمان ، والتفكه بما يضحك منه المترفون ، من القرود والمعافرة بالكلاب والديكة . ثم جرى على يده قتل الحسين وقتل أهل الحرة ، ورمى البيت وإحراقه . وكان مع هذا صحيح العقدة فيما يُرى ، ، ماضى العزيمة ، لا يهم بشىء إلا ركبه » ثم ذكر أخباراً فى لعبه بالقرود وشربه الخمر . ثم ذكر بعد ذلك بإسناده قال : « قال رجل لسعيد بن المسيَّب : أخبرنى عن خطباء قريش . قال : معاوية وابنه يزيد . . . » ثم روى بعد أسطر عن المدائنى عن عبد الرحمن بن معاوية قال : قال عامر ابن مسعود الجمحى : إنا لبمكة إذ مر بنا بريد ينعى معاويه ، فنهضنا إلى ابن عباس وهو بمكة وعنده جماعة ، وقد وضعت المائدة ولم يؤت بالطعام . فقلنا له : يا أبا العباس ، جاء البريد بموت معاوية . فوجم طويلا ثم قال : اللهم أوسع لمعاوية . أما والله ما كان مثل مَن قبله ولا يأتى بعده مثله . وإن ابنه يزيد لمن صالحى أهله . فالزموا مجالسكم ،

وأعطوا طاعتكم وبيعتكم . هات طعامك ياغلام » . ويروى أيضاً : « أن سبب وفاة يزيد أنه حمل قرده على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها ، فسقط ، فاندقت عنقه ، أو انقطع فى جوفه شىء » ثم يعود بعد ستين صحيفة يروى أيضاً « وكان سبب موت يزيد أنه ركض فرسا فسقط عنه وأنه أصابه قطع ، ويقال : إن عنقه اندقت » . هذا ضرب من الرواية لايشك شاك أن بعضه يناقض بعضاً فى كتاب واحد ، فابن عباس ، وهو أعلم قريش بقريش ، يقول عن يزيد إنه من صالحى أهله ، والذى يروى خبر استهتاره بالغناء والخمر والقرود ، يختم كلامه بأنه « كان مع هذا صحيح العقدة فيما يرى » أى صحيح الاعتقاد والإيمان ، وأنه كان « ماضى العزيمة لا يهم بشىء إلا ركبه » فأين هذا من الذى استباح لنفسه أن يجعله بالغاً حد التفاهة والنزق والطيش ، ومن الذى جعله لا يصلح أن يلى أمر مدرسة ابتدائية » ؟ وأين هذان من سعيد بن المسيب ، الذى عده هو وأباه من خطباء قريش ؟ أفيكون الفتى التافه الخليع الطياش ، خطيباً معدوداً فى خطباء العرب ، إلا إذا كان سعيد يعد من الخطباء أولئك المتشدقين الترثارين كخطباء عصرنا هذا !

ثم يكون ماذا إذا وجدنا من يروى كلام من يصف يزيد بما زعموه من شرب الخمر واللعب بالقرود ، ثم يعقب فيروى أن أهل المدينة لما رجعوا من عند يزيد : « مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية (وهو محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما) ، فأرادوه على خلع يزيد ، فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشربُ الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدّى حكم الكتاب . فقال : ما رأيتُ منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرِّياً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً للسنة . قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعاً لك . فقال : وما الذى خاف منى أورجا حتى يظهر إلىّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحقٌّ وإن لم نكن رأيناه ! فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ولست من أمركم فى شىء . قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليك أمرنا . قال : ما أستحل القتالَ على ما تريدوننى عليه تابعاً ولا متبوعاً . قالوا : فقد قاتلتَ مع أبيك ؟ قال جيئونى بمثل أبى أقاتل على مثل ما قاتل عليه . فقالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا . قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا : فقم معنا مقاماً تحضُّ الناسَ فيه على القتال . قال : سبحان الله ! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ! إذنْ ما نصحتُ لله فى عباده . قالوا :

إذن نُكرهك ! قال : إذنْ آمُر الناسَ بتقوى الله ولا يُرضون المخلوق بسُخْط الخالق . وخرج إلى مكة » . فهذه شهادة رجُل قاتل معاوية نفسه ، وخليق أن يُعدّ عدوًّا له وللملكه فيما يزعمون .

فما الذى جعل هؤلاء يرجحون هذه الروايات عن فسق يزيد وفجوره ، على صلاح أمره وتستُّره ؟ لا أدرى !

فهذه الأخبارُ كلها موجودة مذكورة مروية فى كتب التاريخ ، فبأى حجة يحتجُّ الآخذ فيما أخذ ، والتارك فيما ترك ؟ لست أدرى أيضاً . فإما أن يفعل هؤلاء المتدسّسون إلى التاريخ ما فعل أوائلهم من جمع الغث والسمين والصحيح والسقيم ، ثم يكفوا ألسنتهم عن المعابة والإقذاع وسوء الأدب ، وإما أن يأتوا الناس بحجة أو بيان يُرجّح أقوالهم فيما قالوا وما اختاروا من الروايات . وإلاّ فإنَّ الله ربهم آخذهم فمحاسِبهم فمعطيهم نَصيبهم من العذاب الذى أنذر به من آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا . وأنا أكتب هذا لقوم وصفتهم بأنهم يلبسون للناس ثياب الغيرة على الدين ، والحمية لماضى سلفهم . ولو كنتُ أعلم أنى أكتب للزنادقة أو للمتبرئين من دين ربهم ، لكان لما أكتب شأن آخر ، وطريق غير هذا الطريق . ومع ذلك ، فإنى سوف أرتكبُ لهم فيما بعد طريقاً أنفى به الدَّخل والفساد والتزوير فى تاريخ سلفى رضى الله عنهم وغفر لهم ما قدموا من سيء وأثابهم بما فعلوا من صالح . ولستُ أكتب هذا دفاعاً عن يزيد ، فإن يزيد نفسه دافع يوماً ما عن نفسه فيما ترويه كتب التاريخ التى ينقلون عنها ، أو قُلْ يدلسون بالنقل عنها ، إذ سمع قالة الخارجين عليه والكارهين لخلافته أو ولايته إذ قالوا : « إنه رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعبُ بالكلاب ، ويُسامر الخرّاب والفتيان » وبلغه أن المنذر ابن الزبير ، انطلق من عنده بعد أن أكرمه وأحسن إليه ، فانحاز إليهم ، فقال بمثل قولهم فأكثر وقال : « إنه يشربُ الخمرَ ويسكرُ ، حتى يدع الصلاة » فقال يزيد : « اللهمَّ إنى آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيتَ ، فاذكرهُ بالكذبِ والقطيعة » . لم يملك يَزيدُ الاّ أن يلجأ إلى ربه ليذكر هؤلاء بالكذب وقطيعة الأرحام . وماذا ينفع الدفاعُ عن النفس مع منْ لا يتورّعُ من كذب ، ولا يتجافى عن قذفِ الناس بما يعلم أنه ليس فيهم ؟

وأقول مرة أخرى أن ليس همى أن أدفع عن يزيد ، ولا أن أصحح كتابة التاريخ ، ولكنى أكشف عن أصحابِ الأهواء الذين يتغلغلون بين الناس ، وينفثونَ فيهم داءً

الهوى والعصبية ، حتى يقعوا فى أعراض عبادِ الله بالمذمّة والإقذاع وبسطة اللسان ، فاتبعوا بذلك طريق الرافضة أهل الغلوّ والعداوة لأصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو شاء هذا الكاتب أن يحقق معنى العدل والدينِ فيما يكتبُ ، لوجد الطريق واضحاً لا يضطرب عليه ، ولكنه ركب أهواء الرافضة حيث ركبوا ، فأخذ ما حمله له الهوَى من الطعن فى يزيد ليطعن أباه رضى الله عنه وغفر له ، وهو يعلم أنه أحدُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . نعم ليس من أدب أهل المروءة ، ولا أقول الدين أن يؤخذ الوالد بجريرة ولده ، إلا ببينة لا تردُّ ، ولكنه فعل . لا بل فعل أيضاً ما هو أكبر من ذلك فى سبيل الطعن على رجل كان ينبغى أن يمسك لسانه عنه فى الخطأ الظاهر ، لأنه أحد أصحاب رسول رب العالمين ، فإن لم يستطع أن يمسك لسانه فليطلقه بالاستغفار لهُ كما أمره ربه أن يستغفر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . نعم ليس من أمانة التاريخ فى شىء ، بل ليس من أمانة العقل فى شىء ، بل ليس من أمانة الإنسان مجرداً من كل دين يتبعهُ ، أن يرفُضَ الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة ، لخبر مجهول لم يوجد إلا فى كتاب طعّان معروف بثلب عدوٍّ له ، ويرفضها كلها لقاعدة أقامَ عليها رفضه ، هى أن هذه الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة ، إنما أشيعت بعد الظفر بالملك ، أشاعها الأنصارُ والأتباع ، كما يفعل سائر الدعاة . ثم لا يتوقى أن يكون الطعن والسلب من العدو ، هو أيضاً من إشاعة الأعداء والمفترين ، كما يفعلُ سائر الدعاة حين يريدون التشنيع على أعدائهم والوقيعة فيهم ، وصرْف الناس عنهم ، وهاك المثل .

يقول هذا الكاتب : « بَقِى ما اشتهر خطأً من أن معاوية كان كاتب الوَحْى لرسول الله . فالصحيح أنّ أبا سفيان حين أسلم ، رجَا النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فى أن يسند إلى معاوية شيئاً يعتزّ به أمام العرب ، ويعوّض عن سُبّة التأخّر فى الإسلام ، وأنه من الطلقاء الذين لاسابقة لهم فى الإسلام ، فاستخدمه النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى الرسائل والحوائج والصدقات . ولم يقل أحدٌ من الثقات : إنهّ كتب للنبى شيئاً من الوحى ، كما أشاعَ أنصارُه بعد استقرار الملك ، كما يصنَعُ سائر الدعاة ! » . سبحان الله ! « لم يَقُل أحدٌ من الثّقات » ؟ فأين الثقات الذى قالوا إنّ النبى صلى الله عليه وسلم استخدمه « فى الرسائل والحوائج والصّدَقات » ! ! وأنا لا أتعرّضُ ههنَا لفساد معنى هذا الكلامِ من حيث هو كلامٌ عربىٌّ له دلالةٌ على معانيه ، بالألفاظ التى ذكرها هذا الكاتب ، بل أكشفُ له ولغيره من أين

أخذَ كلامَه ؟ ومن هو هذا « الثّقات » الذى يروى عَنْه ؟ فهذا « الثقات » رجلٌ من الرافضة كان فى زمن ابن تيمية . ألف كتاباً سمّاه « منهاج الكرامة » ، فانبرى له ابن تيمية يردّ عليه فى كتابٍ سماه « منهاج السنة » فكان ممّا نقله من نصّ كلامه (٢ : ٢٠١) : « وسمّوه (يعنى معاوية) كاتب الوحى ، ولم يكتب له كلمة واحدة من الوحى ، بل كان يكتب له رسائل (وزاد كاتبنا هذا مالا نعرف معناه ، الحوائج والصدقات ! !) . وقد كان بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، أربعة عشر نفساً يكتبون الوحى ، أولهم وأخَصُّهم وأقربهم إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، مع أن معاوية لم يزلْ مشركاً بالله تعالى فى مدة كون النبىّ صلى الله عليه وسلم مبعوثاً يكذّب بالوحى ويهزأ بالشرع » . ولستُ أدرى لم ترك هذا الكاتبُ سائرَ ما ذكره الرافضىّ ، فيزعم أيضاً أنّ معاوية ظل مشركاً لم يؤمنْ مدّة بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ كلاّ كلاّ فلعلّه استغنى عَنْه بأن جَعَله بطريق آخر « بريئاً من الإسلام والإسلامُ برىء منه » !

وقد ردّ ابن تيمية فى ص ٢١٤ بقوله : « هذا قول بلا حجة ولا علم ، فما الدليل على أنه لم يكتب له ولا كلمة واحدة من الوحى ، وإنما كان يكتب له رسائل » . وأزيد أنا فأقول : أوَ من الهين عند هذا الكاتب وأشباهه أن يكتب امرؤ لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله ؟ ! أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملى رسائل لشغل فراغه ، وقضاء حوائجه ، ومجاذبة أصدقائه ، والتلهى بإملاء صغائر الأمور التى يتعايش بها الناس فى شئون دنياهم ! ! عجيب ! ولكن لا عجب فى زماننا ، ومن أين يأتى العجب ، بل كيف يطيق إنسان أن يعجب بعد أن تبلد حسه بالعجائب تترى لا تنقطع ، حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفا ! وأنا لن أدلّ الكاتب على حيث قيل إن معاوية كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أحب أن يأتى هو الناس « بثقات » آخر ينفى أن يكون معاوية كتبَ الوحى لرسول الله ، وأنه إنما كان يكتب له فى الرسائل .... والحوائج والصدقات أيضا !

وإذا كان قد استطاع بالأمانة والذمة أن يزيف قول من قال إنه كان يكتب الوحى لرسول الله ، بأن ذلك من قول أنصار معاوية أشاعوه وأذاعوا به ، أفلا يستطيع أن يزيف ولو مرة واحدة كل ما رواه فى كتابه عن معاوية وعن أبيه ، وعن أمه ، وعن يزيد وعن بنى أمية ، وعن عمرو بن العاص ، بأنه مما أشاعه وأذاع به أعداؤهم وأعداء

بني أمية ؟ أو ليس صريح العقل يقتضي أن يكون المهزوم المقهور ، أحرص على ذكر مثالب عدوه ومعايبه ، من الغالب المنصور على ذكر مناقبه وفضائله !

ألا إن هذا الكاتب وأشباهه من أصحاب الألسنة الجريئة على الحق ، يرتكب كل صعب وذلول في سبيل تحقيق معان تدور في نفوسهم ، لا يجدون لها متنفساً إلا في الهالكين الذين لا يدفعون عن أنفسهم ، وهم لا يبالون في سبيل ذلك بتحقيق ولا علم ، ولا بتمييز صحيح من سقيم ، ولا يتخطفون من الكلام إلا ما قارب ما يريدون في أنفسهم أن يقولوه ، ولا يعرفون للحجة حرمة ، ولا للبرهان كرامة . وهم يتناولون ما يعرضون له من تاريخ أسلافهم ، بل من أمر صحابة نبيهم صلى الله عليه وسلم بنفس الأسلوب الذي انحدر علينا من حضارة هذا القرن ، في أدب منازعات الصحف والأحزاب . أسلوب يراد به تحقيق معاني العداوة وتقريرها في النفوس ، لا أسلوب تحقيق مواطن الخلاف والكشف عنها بالبيان والبرهان . وهم يريدون أن يجعلوا هذا الأسلوب علماً وتاريخاً ، بل يريدون أيضا أن يجعلوه ديناً يتدين به الناس ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ « الأخلاءُ يَومَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعضٍ عَدوٌّ إلا المتقينَ » . ؟

جرأة العلماء ...

دخل عمرو بن عبيد على أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره فقال :

يا أمير المؤمنين : إنّ الله عز وجل يَقفك ويُسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ؛ ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يُعدل عليك فإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل في الرعية . يا أمير المؤمنين إن وراء بابك نيرانا تتأجج من الجور ، ووالله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ، ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

خاطرة :

حسن البنا

« هذه خواطر جالت بنفسى فى أيام من العمر لاتنسى »

١٣ فبراير سنة ١٩٤٩

فاجعة . .

صليت الفجر وجلست أكتب على الآلة الكاتبة بعض أشياء للمؤتمر الإسلامى ، ثم عدت فوجدت فى انتظارى خبر الفاجعة الكبرى أكاد لا أصدقها ! ! . يدى لاتستطيع أن تحرك القلم !. مقتل حسن البنا . . لا أكاد أصدق ! ! كذب ! لا بل حق هو خبر أذيع : أصيب الرجل العظيم بالرصاص مساء أمس ثم نقل إلى المستشفى مضرجا بدمه الطاهر ، ثم فاضت روحه أثناء الليل إلى عليين ! ! وتركتنا على الأرض نعانى شرها ومرها ! . قتلته يد آثمة أساءت إلى الإسلام الإساءة الكبرى .

هيه يا فضيلة المرشد : سلام عليك حيث أنت ! فى قدسك وعليائك ، وجزاك الله خير ما جزى إماما عن تلامذته وأتباعه .

كان حسن البنا إماما بكل ما تسع الإمامة من معنى ، كان مثلا أعلى فى كل شىء : فى علمه . فى إيمانه . فى إخلاصه . فى نشاطه . فى حدة ذكائه . فى دقة ملاحظته . فى قلبه الكبير وروحه الطاهرة .

كان حسن البنا حجة الله فى نفسى على أن الإسلام يصنع الرجال ويحقق المثل العليا ، ويصوغ النور المصفى من لحم ودم . كان عقلا هائلا . وروحا موصولا بالسر الأعلى لا يفتر عن ذكر الله . كان قمة شامخة فيها العلو وفيها الثبات ، وفيها قوة الجبل . كان عظيما موفقا لا يخطىء الوجهة . كان رائعا ملأ قلوبنا بحب الله ، وأشعل صدورنا بحب الإسلام ، وصهرنا فى بوتقة طاهرة لا تشوبها شائبة .

قتل حسن البنا فى يوم أسود من أيام التاريخ ، وفقدت الإنسانية بفقده « إنسانا » قلما يجود الزمان بمثله .

قتل حسن البنا بعد عشرين عاما قضاها فى جهاد مرير متصل الأيام والليالى .

لن أنسى جولاته فى الأقاليم لا ينام إلا ساعتين أو ثلاثا كل يوم ، ولن أنسى سهره الليل عاكفا فى المركز العام ، أو فى منزله ، أو فى الشهاب على أعمال الدعوة ، ولن أنسى دموعه التى طالما هتنت فى غفلة من الناس على الإسلام والمسلمين .

هذا الصوت العميق الرخيم ، وهذا الإيمان الحى الغامر ، وهذه الروح المشرقة التى عرفتُ بها الله ، وطوتنى أشعتها ونشرتنى سبع سنين كانت حلما عزيزا .

هذا الرجل العجيب الذى بعث الأمة من أعماقها ، وهزها هزة عنيفة أسالت الحياة فى وجدانها ، ولم يتركها إلاّ وقد خلف فيها جيـــلا كريما حيّـا يعرف ربه ، ويؤدى واجبه .

هذا الإمام الذى كان أملا خفاقا ساقته رحمة الله فى عصر مظلم داعر أمره فرط هو الذى قتلوه قتلة ستظل وصمة فى جبين مصر والمصريين . جوزى بها جزاء سنمار .

الجمعة ١٨ مارس سنة ١٩٤٩

لم تمت . .

كنت أنظر الآن من شرفة غرفتى بفندق « سرتاج » بكراتشى فرأيت شابا ينحنى انحناءة ذكرتنى بأخ عزيز من إخوان مصر .

هيه يا إخوة مصر . يا شبابها الطاهر . يا نور النبوة وميراث المجد الغابر ، وعزاء القلب الجريح . ما كان يدور بالبال أن يوما سيأتى يحال فيه بيننا بهذا السياج الآثم من زبد الرياح الهوج بعد أن تنسمنا أنسام الحق والحرية بين يدى الرجل العظيم .

كان حسن البنا نسمة حلوة جادت بها رحمة الله على الإنسانية الظامئة . ثم مرت عابرة بعد أن ذكرتنا بأيام الأنس الأولى : أيام الأنبياء والمرسلين وأحباب الله فى أرضه ، وحببت إلينا الجنة والخير ، والمثل العليا والسمو ، وكل ما بينه وبين الله نسب من القبول والرضا ؛ لأن حسن البنا كان نسبة خالصة ليس فيها لغير الله نصيب . . كان روحا نعبُّ منه ولا يغيض ، وبحرا صافيا تذوب فيه كل أوساخنا ويظل هو هو طهورا مرسلا لا يضيق ولا يعتكر .

هيه يا فضيلة المرشد . أحق ما يقولون من أنك مت ، ومت قتيلا فى شارع من شوارع القاهرة ، ودفنت بعد أن صلى عليك نفر قليل فى مسجد قيسون ، وكان المشيعون بضعة من أهلك وأقاربك ؟ . . لم تمت يا فضيلة المرشد ! ! لا والذى خلقك ! لا والذى أنعم علينا بك ! ! ومتعنا بصحبتك ! لقد فتحت قلوبنا على النور ، ووضعت أيدينا على أول الصراط وجمعتنا من شتات .

سنمضى إلى حيث كنت تدعو وربى وتحترق بالليل والنهار . لا زالت دروس الثلاثاء ، وكتائب المركز العام وأحاديثك الخاصة ، وخطب السرادقات ، وهمسك فى لحظات الصفاء ؛ لا زال ذلك كله طى قلوبنا ، وأمانة الله فى أعناقنا .

لقد تركتنا يا فضيلة الأستاذ بعد أن حملتنا العبء القاسي ، وجعلته شهداً مذابا في طوايانا وأعصابنا ! فاهنأ — يا حبيب الروح — في جنة الخلد ، واسعد كفاء ما كافحت الكفاح المر الطويل .

الجمعة ١٠ يونية سنه ١٩٤٩

نجوى ...

(في حجرتي العالية بمستشفى فاطمة جناح أرمباغ كراتشي باكستان حوالي الساعة العاشرة صباحا) .

سيدي فضيلة الأستاذ المرشد :

السلام عليك ورحمة الله وبركاته . وأسعد الله صباحك أيها الرجل العظيم . وهل في الجنة صباح ومساء ؟ هكذا أراد الله لك الجنة ، وأن تتركنا هنا حيارى بين ظلمة ونور . كنا معك يا فضيلة الأستاذ طيورا أطلقتها بإذن ربك من أقفاصها ؛ فراحت تخفق بأجنحتها في هواء طلق ، ولكنها كانت لا تلبث أن تعود إليك ، وتخفق خفقة الولاء لله بين يديك . أما بعد أن تركتها وطرت إلى أقدس جوار وأصدق منزل ، فقد تناوشتها الرياح ، وهي الآن تبحث عن وكر هادىء تجتمع لديه . ليس يعلم إلا الله — ياسيدي — ما تخبئه الأيام لنا إلا أننا نسائل الله أن يثبتنا على العهد . .

أين روحك — يا سيدي — تزيل الران عن قلوبنا ؟ أين عيناك نقبس منهما نوراً من أنوار السماء ؟ أين سرك الرائع الذي كان يجعلنا دائماً في ثقة من أننا على الصراط ، وفي اطمئنان إلى أن حسن البنا ليس فيه لغير الله شيء ؟ كنت — ياسيدي — الرجل الذي أومن به ، واطمئن إليه ، وأجد الراحة كاملة في صدق الفناء فيه .

لا زلنا نذكر كلماتك : « أيها الإخوان : إني لا أخشى عليكم الدنيا مجتمعة . فأنتم بإذن الله أقوى منها . ولكني أخشى عليكم أمرين اثنين : أخشى أن تنسوا الله فيكلكم إلى أنفسكم ، أو أن تنسوا أخوتكم فيصير بأسكم بينكم شديدا » .

يا فضيلة الأستاذ : لن ننسى الله ، ولن ننسى أخوتنا ، وما فعل أعداء الله أكثر من أن ذكّرونا بهما ...

سيدي الأستاذ : تذكر يوم جاءك خبر استشهاد الأخوة الكرام في أول معركة في فلسطين . وتذكر أنك قلت ساعتها « اشتقنا إلى الجنة ، لا إلى خيراتها وفواكهها ولكن إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، والصحب الكرام ، وهؤلاء الشهداء الأعزاء » وقد استجاب الله لك . . هل رأيتهم ؟ وكيف وجدتهم ؟ . . هنيئاً لك ما أنعم الله به

عليك ، عزة فى الدنيا ، وكرامة فى الآخرة « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » .

آه يا أستاذ لم تعد مكلفا فأسألك ! ! ولسنا لنعلو إليك فنسمعك ! ! أصبح علينا أن نواجه الحياة بإيمان وعزم . وبذرك الذى بذرته سيؤتى أكله ومع اليوم غد . « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .. » والسلام عليك يا حبيب الروح ورحمة الله وبركاته !

الثلاثاء ١٩ يوليه ١٩٤٩

آخر لقاء .

(الساعة الآن التاسعة مساء وقد انتهيت من الإفطار منذ دقائق ، وأنا أغسل يدى فى ركن يطل على شارع محاذ لحديقة أرمباغ)

لمحت عربة تشبه عربة فضيلة الأستاذ المرشد التى تعود أن يركبها .. خفق قلبى وغار بين جنبى ، وأحسست بلفح الذكرى يهز نفسى هزا . لا زلت أذكر آخر لحظات رأيت فيها فضيلة المرشد الشهيد — أعزه الله — كأنها منذ ساعات فقط ، أو كأنها لا تزال باقية ، وكل ما أذيع من الأنباء كذب لا ينال منها ، ولا يؤثر فيها .

ها هو فضيلة المرشد الحبيب جالس بجلبابه الأبيض ، وعباءته البيضاء إلى مكتب فى الحجرة القريبة من مسجد المركز العام للاخوان .. وجه مشرق حلو ، وسمات ربانية عالية .. وصوت رخيم عذب فيه رضاب النبي الحبيب وجرس السماء الحلو .. و ..

انتهى فضيلة الأستاذ لتوه من محاضرة ألقاها بالمركز العام ودع فيها الإخوان لعزمه السفر إلى الحجاز صبيحة الغد .

دعانى إليه ، وطلب إلى أن أستعد للسفر إلى شرق الأردن ، وزودنى بخاصة أمره فى ثقة غالية سأظل أعتز بها العمر كله .. ثم قبلت يده وقبل رأسى . وما كنت أعلم أن هذا آخر لقاء لنا فى الدنيا ! . إلى أن يجمعنا الله مرة أخرى .

اللهم تقبل حسن البنا أحسن قبول . فقد كان وأنت — أعلم به — عبدا صادقا ، ومجاهدا أمينا ، وإماما جمع الكثيرين من فرقة وطهرهم من دنس ، وهداهم بإذنك من ضلال . اللهم ارفع درجاته عندك ، واجعله مع النبيين والصديقين ، وأسعده بالنظر إلى وجهك الكريم ، واجزه عنا خير ما أنت أهل له ، وأكرمه الإكرام كله . اللهم أسعده . اللهم أسعده . اللهم أسعده .

اللهم وألحقنا به فى الصالحين ، وثبتنا على العهد الذى عاهدناه ، وعوضنا عنه خيرا ، وألق فى قلوبنا نورا ينير لنا الطريق . اللهم آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الوحدة الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

« بحث مهدى إلى مؤتمر العلماء بمناسبة انعقاده فى هذا الشهر بالباكستان »

١ — لقد ورد فى الأثر (أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء) وإذا كنا فى عصر غربة الإسلام ، حتى إن المنادى بمبادئه وآرائه وإصلاحه ليلقى الذى يلاقيه من ينادى قوما غرباء عنه لم يعرفوه ولم يأنسوا به ، ولم تخالط بشاشته وسماحته قلوبهم . إذا كان العصر كذلك فقد انطوى كل امرىء على نفسه ، وكل جماعة على أمرها .

ولكن فى هذا الديجور المظلم بزغ نجم ثاقب بقيام حكومة إسلامية تؤنس الإسلام فى غربته ، بل تزيل عنه معنى الاغتراب ، تلك الحكومة هى الحكومة الباكستانية الرشيدة ، فقد أشعرت المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أنها دولة إسلامية ، تحيى مبادىء الإسلام ، وتعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية فى صورة تتفق مع حال العصر ، وتباعد الأقطار ، وتنائى الأمصار ، ثم تعلن على الملأ من العالم أن المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه كما قال الرسول عليه السلام ، وأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، ومن قتل واحداً منهم فقد اعتدى عليهم ؛ فكيف بمن يحاول قتل إحدى جماعاتهم ، أو يبيد أهل إقليم من أقاليمهم ، أو يشرد جمعا كثيفا من جموعهم .

٢ — وإن ذلك هو الإسلام حقا وصدقا ، فإن المسلمين مهما تختلف ألوانهم ، وشعوبهم ، وأقاليمهم أمة واحدة ، وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم) .

وقال تعالى (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

ولقد بين النبي صلى الله عليه بأقواله وأفعاله الوحدة الإسلامية الجامعة ؛ فقد تضافرت عنه الروايات الدالة على الأخوة الإسلامية التي لا تفرق بين عربي وأعجمي ، ولا بين شريف وضعيف ، ولا بين إقليم وإقليم ، وقال في عبارة جامعة : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)وقال عليه السلام :(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وغير هذا مشهور مستفيض ، حتى إن ذلك ليتواتر في المعنى ، فهو من المعاني التي تفهم من الإسلام بالضرورة ، ولا يعد من المسلمين من ينكرها ، أو يخالفها جحوداً بها .

وأما أفعاله المبينة لهذه الوحدة الجامعة ، فهي تلك المؤاخاة التي كانت تربط في جمعه عليه السلام بين القرشي والخزرجي والأوسي ، ومن كان من أصل يهودي . كما كان في الجمع بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي . وهو يوحّد بينهم ويقول لهم (كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) وقد بعث عليه السلام للأحمر والأسود والأبيض ، وجميعهم أمام الشرع سواء ؛ لا فضل إلا بالتقوى ، والقيام بحق الإسلام .



٣ — المسلمون إذن أمة واحدة ، وتلك حقيقة يُعد من نافلة القول بيانها ، فضلا عن إقامة الدليل عليها ؛ لأنها مجمع عليها ، ولكننا في عصر الغربة قد أنكرت أفعالنا ما تقره عقولنا ، ونعلمه بالضرورة من هذا الدين الحكيم .

والأمة الإسلامية تقوم على الوحدة الدينية والاعتقادية ، والاجتماع على المبادىء والأخلاق والعبادات ، وكل يوم يمر يشعر المسلم فيه بهذه الوحدة إن أدى العبادة على وجهها ؛ فهي في قلبه آناء الليل وأطراف النهار بالصلوات الخمس ، إذ يؤديها المسلمون جميعا إلى قبلة واحدة فإذا تصور المسلم عند أداء الصلاة أنه واحد من ألوف الألوف يتجهون مثل اتجاهه ،ويولون وجوههم شطر بيت الله الحرام . علم أين تكون مثابته ، وأين تكون جماعته ، إنه عندئذ يدرك أنه لبنة في بناء أكبر مجتمع قام على الفضيلة والخلق القويم ، وإنك لترى ذلك الشعار السامي في الصوم ، وتراه في الحج أوضح إشراقا ، وأعظم نورا ، إن أدركت القلوب معنى العبادة .

٤ — وإن قيام الاجتماع الإسلامي على مبادىء من الفضيلة والأخلاق الدينية هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات ، ولا يعد الاجتماع العنصري من الطرق المثلى لتكوين الأمم ، ومثله الاجتماع الاقليمي أو الاقتصادي ؛ ذلك لأن الجماعة الواحدة لا تكون بها أمة إلا إذا اتحدت المشاعر والأهواء والمنازع النفسية ، ولا تتكون هذه المشاعر تحت

سلطان تبادل المنفعة فقط ، أو مجرد الاجتماع فى إقليم واحد ، فتقارب المكان وحده لا يقرب النفوس ، وتبادل المنفعة يكون عند قيامها ، ويزول عند زوالها ، ولا تتحد نفوس فى هذا الظل العارض الذى يتغير بتغير الأحوال والأزمان ، ولم يعرف أن جماعة أو أمة تكونت من مجرد التبادل الاقتصادى أو الاشتراك فى المنفعة المادية .

ولم يبق إلا الموازنة بين تكوين الأمة بالعنصرية أو بالدين . وأنه بالموازنة الصحيحة يتبين أن السير بالإنسانية فى مدارج الرقى ، وقيام العلائق البشرية على أسس من الفضيلة والمودة الواصلة ، انما يكون تحت ظل الدين ، لا تحت ظل العنصرية .

ذلك لأن العنصرية تفرض دائماً تفضيل عنصر على عنصر ، وهى شكل من أشكال التجمع الحيوانى إذ تجتمع فصيلة من الفصائل لتقاتل أخرى ، وتجتاز مكاناً تقيم فيه لتغالب الآخرين ، فليس التجمع الإنسانى على أساس العنصرية إلا بقية من بقايا الحيوانية المتناحرة فى الإنسان ، وقد رأينا الألمان كيف جرّوا العالم إلى ويلات الحروب المبيدة باسم العنصرية ، وقاومهم غيرهم باسمها ، وإذا كتمت الدول الشرهة إلى الاستعمار أمرها ، فهى متغلغلة فى نفوس أبنائها ، بل ليست فكرة الأمم الملونة والأمم البيضاء إلا صورة لتحكم العنصرية ، وبقية من بقايا الحيوانية المتناحرة ، بل هى أخص ظواهرها .

ولكن إذا كان الاجتماع باسم الدين فهو اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الأخوة العامة ، والمودة الراحمة التى تحث عليها الأديان وتدعو إليها . والاجتماع الدينى يكوّن أمة تتحد فيها المشاعر نحو الفضيلة والمثل العليا التى تنزع بالروح الإنسانى نحو الملكوت الأعلى ، ويخضع فيها الإنسان لخالق الأكوان وحده ، وعندئذ يعلو الإنسان على المغالبة والتناحر ، إلا إذا اعتُدِى عليه ، فعندئذ يؤذن له بالقتال ، (أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . . . ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وفى هذه الحالة يكون القتال من دفاع الفضيلة ضد الرذيلة .

٥ — وإنه فى الوحدة التى يكون أساسها الدين تكون العدالة الحقيقية ؛ إذ لا يكون ثمة فرق بين جنس وجنس ولون ولون . وإنما التفرقة حينما تتكون الوحدة الجامعة العنصرية ، وإن فى أمريكا الشمالية لعبرة لأولى الأبصار فبينما نجد

الحريات للبيض فيها مكفولة ، والرق ملغى نجد ظلما لا يقل عن ظلم الجاهلية الأولى فى معاملتهم للجنس الأسود بها ، فيكاد ذلك الجنس يكون مباح الدم ، وما سُطر له من حقوق إنما هو خطوط مكتوبة على قراطيس ، ليس لها مظهر فى العمل قط ، وأين هذا من قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .

فالعلو فى الاجتماعات التى توجد فيها المبادىء الدينية ، وتربط آحادها مبادئ الأخلاق قائم على أساس فعل الخير والفضيلة لا على أساس نبل الدم ، أو كرامة السلالة . وإذا كان فعل الخير أساس العلو ؛ فإن الجماعات تسير دائماً فى درج الرقى ، وتتجه دائما نحو المثل العليا الفاضلة فوق تحقق العدالة الاجتماعية على أكمل صورها .

وأنه بلا شك حيث جمع الدين ومبادئ الأخلاق يقل التناحر بين بنى الإنسان ، وإذا كان التاريخ يحكى تناحرا بين الناس بسبب الدين ، فليس ذلك ناشئا عن الدين نفسه ، إنما هو ضلال الفهم . فقد يتحول الدين فى نفوس بعض الذين لا يدركون حقائقه إلى معنى يشبه الجنسية والعنصرية . وفى هذا الحال لا يكون القتال والتناحر منبعثا من ذات الدين ، ولا من مبادئه ، بل من العنصرية لبست رداء الدين ، فتقاتلت باسم الدين ، والدين منها براء ، أو من خطأ الفهم للحقائق الدينية ، فيتحول فى نفوس المنتحلين له إلى عصبية كعصبية النسب ويختفى فى النفس معنى الخير ، وسمو الفضيلة ، وغير ذلك مما يختص به التدين ويعلو به عن التناحر إلى الأخوة الهادية الفاضلة .



٦ — من أجل هذا كله جعل الإسلام أساس الوحدة الجامعة هو الدين ، وجعل المسلمين جميعا أمة واحدة ، واتفق المسلمون من أقدم العصور إلى اليوم على أن الولاية الإسلامية واحدة لا تقبل التعدد ، وأنه حيث حل المسلم فى أرض إسلامية فقد حل فى أرضه أو فى ولايته ، وأنه لا يسوغ للمسلم أن يبقى فى ولاية قوم غير مسلمين باسم الجنسية أو العنصرية أو الإقليم ، وأن عليه أن يهاجر إلى أقرب قطر إسلامى يقيم فيه ، ولا يستظل براية غير إسلامية ، ولذا قال سبحانه وتعالى فى محكم آياته : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل

الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما » .

فباب الهجرة مفتوح بمقتضى هذا النص لكل مسلم قادر يعيش مستضعفا تحت ولاية غير إسلامية ، وما من معذرة يعتذر بها أمام الله ، وأمام المسلمين ؛ لحيث يجتمع بالمسلمين يقوى بهم ويعتز ويكون فيهم قوة تعمل وتثمر وتحمى الذمار .

٧ — هذه الحقائق المقررة تشير إلى معنى الاجتماع فى الإسلام ، وأنه لا عصبية ولا عنصرية ، ولا جنسية ، ولا إقليمية فكل ذلك منازع غير إسلامية نهى الإسلام عنها ، واعتبرها نزعات جاهلية ، ومن سار فى طريقها فقدرغب عن حكم الإسلام بحكم جاهلى (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

ولكن على أى شكل تكون الوحدة اليوم ؟ أتكون على الشكل الأول فى صدر الإسلام ؟ أم تكون على شكل يلائم روح العصر مع تحقق معنى الوحدة على أكمل وجه . على معنى أننا إن أخذنا بروح العصر ، ففى شكل الوحدة لا فى جوهرها ، فلسنا ممن يخضعون أحكام الإسلام لروح العصر ، ولكن الإسلام أمرنا بالقيام بحقائق اجتماعية مقررة ، وترك لنا أساليب تحقيقها نجتهد فى تعرف أنجعها وأقربها توصيلا لهذه الحقائق وتحقيقا لها ، فمن روح العصر نستنير الطريق الموصل وما يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نمكن العصر من التحكم فى حقيقة شرعية مقررة ثابتة .

٨ — وقبل أن نخوض فى بيان شكل الوحدة فى عصرنا نشير إلى شكل الوحدة فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم فى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم فى عصر الدولتين الأموية والعباسية .

عندما تكونت للاسلام دولة ، وانتقل المسلمون فى عصر الرسول من دور المستضعفين فى الأرض إلى دور الاستقلال ، ووجود الكيان الإسلامى ؛ بقيام الدولة فى يثرب بعد الهجره النبوية . أخذ النبى يعمل على تكوين الوحدة الإسلامية بما يحقق مقاصد الإسلام ، وليضع بعمله الدعائم الأولى التى تبنى عليها وحدة المسلمين ، وابتدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليمكن بذلك محو الفروق الإقليمية والفروق العنصرية بشكل عملى ، وكان فى إطار تلك الوحدة كما قلنا الحبشى والفارسى والعربى ، وكان من العرب القرشى والأوسى والخزرجى والغفارى ، وغير ذلك من القبائل التى كانت متناحرة فى الجاهلية ، ويعلو بعضها على بعض بالعنصر أو الدم أو السلالة فكان الجميع

فى تلك الوحدة على سواء ، ونادى رسول الله بنى هاشم أسرته قائلا فى قوة : « يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب » .

ولما صارت كلمة الله هى العليا فى البلاد العربية كلها كانت الدولة الإسلامية مكونة من الأقاليم العربية كلها ، وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عماله وولاته وقضاته .

ونهج الصديق خليفة رسول الله منهج النبى صلى الله عليه وسلم واقتدى به فى حقيقة الحكم وأسلوبه ، فلما فتح الله على المسلمين فى عهد الفاروق رضى الله عنه العراق وفارس والشام ومصر . حكم الجزيرة العربية بحكم النبى صلى الله عليه وسلم وأسلوبه ، وأرسل الولاة والقضاة إلى الأقاليم ، وكان حريصا على أن يعين قضاة الأقاليم من قبله ، والولاة كذلك ، وأحيانا كان يجعل لهم سلطانا كاملا فى ولايتهم فى الإدارة وبيت المال ، وعينه النافذة المبصرة الرقيبة تتبع أعمالهم ، وأحيانا كان يعين الوالى الإدارى ، كما يجعل ولاية بيت المال لوال من قبله أيضا ، وفى الحالتين هو مسيطر مشرف ؛ يعزل عند مظنة الظلم ، ولا يسكت عن الشبهة فى الظلم ، ولواضطره الأمر أن يعزل كل يوم واليا ، لأنه يريد تحقيق العدل ، ويريد أن يُشعر المحكومين بأن الحاكم لا يريد إلا العدل المطلق فى كل صوره ، فليس الاستقرار بالعدل وحده ، بل بأن يشعر المحكومون بأن الحاكم لا يريد سواه ، وبأن تنفى كل شبهة للظلم ؛ لكيلا ينفذ إلى القلوب شيطان التمرد والعصيان .

ولما جاء عهد ذى النورين عثمان بن عفان قوى سلطان ولاة الأقاليم ، واتسعت ولايتهم ولم يحسوا بالسيطرة النفسية التى كانوا يحسون بها فى عهد الفاروق ، خفت قوة المركزية ، وخف سلطان المدينة على الأقاليم ، ولما جاء عهد سيف الإسلام على بن أبى طالب رضى الله عنه أراد أن يعيدها عمرية ، ولكن لم يتم له ذلك ، لإلف الناس رفق أمير المؤمنين عثمان ، وللفتن التى قامت فى عهده رضى الله عنه ، ولما ابتلاه الله من خروج الخارجين عليه .

٩ — هذا كله والإسلام غض ، وأحكامه قائمة مسيطرة ، فلما جاء عهد الأمويين ، وصدر الدولة العباسية كان لولاة الأقاليم سلطان كامل يكاد يكون مطلقا إلا فى تنفيذ رغبات الخليفة ، وسياسته ومنهاجه فى الحكم ، ودعم الأسس التى قامت عليها دولته . وبذلك ابتدأت تأخذ الدولة الإسلامية شكل الجامعة الدولية ، فكان فى مصر شبه دولة خاضعة ، وفى العراق كذلك ، ولكن الولاة يعينون من قبل الخليفة ويعزلهم

حيثما أراد ، وقد يبقى بعضهم طول حياته أو الشطر الأكبر منها على حسب ثقة الخليفة به .

وقد حدث فى عهد المنصور أن قامت فى الأندلس دولة إسلامية منفصلة تمام الانفصال ، أو معادية للدولة الإسلامية فى بغداد ، وكان هذا أول تفكك للوحدة الإسلامية ، ووجود دولة إسلامية تعادى الأخرى ، وإن لم تقع بين الدولتين حروب ، بل كان يشعر أمير الأندلس أنه ليس خليفة ، وأن الخلافة فى بغداد ، ولم يلقب بلقب الخليفة إلا بعد أن وهنت الخلافة ببغداد وصار سلطانها إسميا حتى على العراق نفسه .

١٠ — ومن آخر عهد هارون الرشيد أخذت الولاية الإسلامية التى تخضع لحكم بغداد تأخذ وصف الدولة ؛ فصارت بلاد المغرب تحت سلطان الأغالبة ، وتوارثوا حكمها ، ثم نشأت الدولة الطولونية بمصر ، ثم الدولة الأخشيدية ، حتى استولى الفاطميون عليها ، وصاروا الدولة الثانية التى تناوىء حكم العباسيين ، وصارت فى البلاد الإسلامية ثلاث دول ؛ كل دولة منها تدعى الخلافة ، ورئيسها يقول إنه وحده أمير المؤمنين .

وكانت الولايات الإسلامية فى الشرق قد صارت دولا تربطها ببغداد الرابطة الروحية . وعندئذ قامت الفتن ، وحلّت وحدة الإسلام ، فقامت فتنة الزنوج ، ثم فتنة القرامطة ، وصار بأس المسلمين بينهم شديدا ؛ فطمع فيهم أعداؤهم ، فجاءهم الفرنجة من الغرب ، والتتار من الشرق ، وقد استطاعوا أن يردوا الفرنجة على أعقابهم ، وأن يدخلوا الإسلام فى قلوب التتار .

ولما جاءت دولة آل عثمان ، واعتبرت حكمها خلافة ، وامراؤها خلفاء كانت الوحدة النفسية قد انحلت ، فكان جسم الخلافة مكون من لبنات غير قوية ، ولم يكن الحكم فى معناه إسلاميا بل كان الحكم هرقليا . ولا يجتمع حكم محمد ، وحكم هرقل فى إهاب واحد .

وقد نشأت دول إسلامية تناوىء سلطان آل عثمان ، كما صارت الخلافة العثمانية هدفا لمن يريشون للاسلام سهام الموت ، وأخذت الدولة المسيحية تقتطع من جسم الخلافة العثمانية البلاد الإسلامية ، قطعة قطعة ، حتى لم يجىء القرن العشرون حتى كانت البلاد الإسلامية تحت سلطان الحكم الأوروبى أو فى نفوذه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

١١ — فى هذه الأثناء ارتفع الصوت العبقرى الحر السيد جمال الدين الأفغانى مناديا بالوحدة الإسلامية ، وطاف بالشعوب الإسلامية موقظا الروح الإسلامى ومحييا

موته فى القلوب ؛ فأحيا الروح الإسلامية فى فارس والهند ومصر التى وجد فيها أرضا خصبة وتلاميذ ذوى همة على رأسهم الأستاذ الشيخ محمد عبده

ولقد كان السيد جمال الدين رضى الله عنه يعتقد أن الوحدة الإسلامية متحققة بالمشاعر والوجدان ، يحول بينها وبين الظهور فساد الحكم وطغيان الأمراء ، ويقول فى ذلك بلل الله ثراه :(أما وعزة الحق وسر العدل لو تُرك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من عقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ، ولو على قرية لا أمر له فيها ولا نهى . هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله ، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ؛ حتى تناكرت الوجوه ، وتباينت الرغائب) .

ثم ينادى الهمم ويبعث الأمل ويقول رضى الله عنه .

(أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ ! لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم) .

١٢ــ وقد أحدثت صيحات ذلك الإمام الجليل أثرين عظيمين : أما أحدهما فهو يقظة الأمم المستعمرة التى تسيطر على المسلمين إلى محاربة تلك الدعوة التى لو تمت لأزالت سلطانهم ، ولو سيطرت على القلوب لأقضت مضاجعهم . ولذلك حاربت فكرة الوحدة الإسلامية بشتى الوسائل ؛ ما بين تعليمية وسياسية ، واجتمعت كلمتها على وأدها فى مهدها .

وأما الثانى فهو يقظة النفوس فى المسلمين . وإن لم يجتمعوا تحت لواء واحد ووحدة جامعة ؛ فقد اجتمعوا على كراهية المستعمرين والأحساس بأنهم أعداء الدين .

« للبحث بقية »

عينان ...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

التشريع الجنائى الإسلامى

للأستاذ عبد القادر عودة

(٤)

٢٢ — الخطأ فى الوطء : الخطأ إما خطأ فى وطء مباح ، وإما خطأ فى وطء محرم فالخطأ فى الوطء المباح شبهة تدرأ الحد عند القائلين بالشبهة ، فمن زفت إليه غير زوجته وقيل هذه زوجتك فوطئها يعتقدها زوجته فلا حدّ عليه باتفاق ، وإن لم يُقل له هذه زوجتك ، أو وجد على فراشه امرأة ظنها امرأته فوطئها ، أو دعا زوجته فجاءته غيرها فظنها المدعوة فوطئها ؛ فلا حدّ عليه عند مالك والشافعى وأحمد والظاهريين والزيديين . وحجتهم أنه وطء اعتقد الفاعل إباحته بما يقدر فيه مثله ، وأنه أشبه بوطء من زفت إليه غير زوجته ، ولكن أبا حنيفة يرى الحدّ على من وجد امرأة على فراشه فوطئها ، لإن المسقط هو شبهة الحل ولا شبهة ههنا أصلا سوى أن وجدها على فراشه ، ومجرد وجود امرأة على فراشه لا يكون دليل الحل ليستند الظن إليه . وهذا لأنه قد ينام على الفراش غير الزوجة من صديقاتها وقريباتها ، فلم يستند الظن إلى ما يصلح دليل حل ، وكذلك الحكم إذا كان أعمى إلا إذا دعاها فأجابته أجنبية وقالت أنا زوجتك ، وهذا إذا لم تطل الصحبة ، وتشابهت النغمات ولم يستطع التمييز .

أما الخطأ فى الوطء المحرم فليس شبهة باتفاق ، فمن دعا محرمة عليه فأجابته غيرها فوطئها يظنها المدعوة فعليه الحد ، فإن دعا محرمة عليه فأجابته زوجته فوطئها يظنها الأجنبية التى دعاها فلا حد عليه ؛ لانتفاء حرمة الفرج لعينه . وإن أثم باعتبار ظنه[1] .

٢٣ — الرضاء بالوطء : والرضاء بالوطء لا يعتبر شبهة باتفاق ، فمن وطىء امرأة أجنبية أباحت نفسها له فهو زان ، ولو كان ذلك بإذن وليها أو زوجها ، لأن الزنا لا يستباح بالبذل والإباحة ، وليس لأحد أن يحل ما حرم الله فإن أحلت امرأة نفسها فإحلالها نفسها باطل وفعلها زنا محض[2] .

٢٤ — الزواج اللاحق : والزواج اللاحق بالمزنى بها يعتبر شبهة تدرأ الحد فى رواية أبى يوسف عن أبى حنيفة ؛ فمن زنا بامرأة ثم تزوجها لايحد ؛ لأن المرأة تصير

(١) شرح الزرقانى ثامن ص ٧٨ — شرح فتح القدير رابع ص ١٤٧ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٤ — المغنى ج ١٠ ص ١٥٥ — المحلى ج ١١ ص ٢٤٦ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٢) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٨٠ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٦ — المغنى ج ١٠ ص ١٥٦ — المحلى ج ١١ ص ٢٤٦ .

مملوكة للزوج بالنكاح فى حق الاستمتاع لحصل الاستيفاء من محل مملوك فيصير شبهة تدرأ الحد .

وفى رواية الحسن ومحمد أن الزواج العارض بعد الزنا لا يعتبر شبهة ؛ لأن الوطء وقع زنا محضاً لمصادفته محلا غير مملوك للواطىء ، ولأن الزواج ليس له أثر رجعى فلا يمتد أثره لوقت الوطء .

والرواية الأخيرة تتفق مع مايراه جمهور الفقهاء ؛ فهم يرون أن من زنا بامرأة ثم تزوجها لم يسقط الحد بذلك عنه ؛ لأن الحد قد وجب بالزنا السابق فلا يسقطه الزواج اللاحق[1] .

٢٥ — وطء من وجب عليها القصاص : ومن وجب له القصاص على امرأة فوطئها وجب عليه الحد ، ولا يعتبر استحقاقه القصاص عليها شبهة تدرأ الحد لأن حق القصاص إذا أباح له قتلها فلا يبيح له فرجها أو الاستمتاع بها[2] .

٢٦ — العجز عن ادعاء الشبهة : ويرى أبو حنيفة أن عجز الجانى عن ادعاء الشبهة يعتبر شبهة دارئة للحد ؛ فالزانى الأخرس والزانية الخرساء لا يحدان ولو ثبت الزنا ضدهما بشهادة الشهود ؛ لأنهما يعجزان عن ادعاء الشبهة ، ومن المحتمل أن يدّعياها لو استطاعا النطق ، وكذلك الشأن فى المجنون الذى زنا حال إفاقته ، بل يذهب أبو حنيفة إلى أن الأخرس لا يحد بإقراره إذا أقر كتابة أو إشارة ؛ لأن الإقرار المعتبر عنده هو الإقرار بالخطاب والعبارة دون الكتاب والإشارة ، فلو كتب الأخرس الإقرار فى كتاب أو أشار إليه إشارة معلومة لا حد عليه ؛ لأن الشرع علق وجوب الحد على البيان المتناهى ، والبيان لا يتناهى إلا بالصريح وهو الخطاب والعبارة ولا يتناهى بالكتابة والإشارة[3] .

ويرى الزيديون ما يراه أبو حنيفة من أن الخرَس والجنون شبهة تدرأ الحد ولكنهم يرون أن إقرار الأخرس صحيح إذا فهمت إشارته أو كان إقراره كتابة[4] .

ويرى مالك والشافعى وأحمد أن عجز الجانى عن ادعاء الشبهة لا يعتبر شبهة ،

---

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٢ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ — المغنى ج ١٠ ص ١٩٤ — المحلى ج ١١ ص ٢٥٢ .

(٢) المغنى ج ١٠ ص ١٩٥ .

(٣) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٥٠ وشرح فتح القدير ج ٤ ص ١١٧ .

(٤) شرح الأزهار ج ٤ ص ١٥٩ ، ٣٥٠ .

ويقولون بحد الأخرس والمجنون إذا ثبت زناه بالبينة ، كما يقبلون إقرار الأخرس بالكتابة وإقراره بالإشارة كلما أمكن فهم إشارته دون شك فيها(١) .

ويرى الظاهريون أنه إذا كانت البينة فلا معنى للانكار ولا للاقرار(٢) وهم فوق هذا لا يعترفون بالشبهة ، ولا يرون درء الحدود بالشبهات ، ومقتضى هذين المبدأين أن عجز الجانى عن ادعاء الشبهة لا أثر له على الحد .

٢٧ — إنكار أحد الزانيين : ويرى أبو حنيفة أن إنكار أحد الزانيين يعتبر شبهة إذا أقر الآخر ولم يكن دليل غير الإقرار ، فلا يعاقب المنكر لأن الإقرار حجة قاصرة على المقر ، ولا يحد المقر لأننا صدقنا المنكر فى إنكاره فصار المقر محكوما بكذبه ، وتعليل ذلك أن الحد انتفى فى حق المنكر بدليل موجب للنفى عنه فأورث شبهة الانتفاء فى حق المقر ؛ لأن الزنا فعل واحد يتم بهما فإن تمكنت فيه شبهة نفذت إلى طرفيه . وهذا لأنه ما أقر بالزنا مطلقا ، وإنما أقر بالزنا بفلانة وقد درأ الشرع عنها وهو عين ما أقر به فيندرىء عنه ضرورة .

ولكن أبا يوسف ومحمد يريان ما يراه مالك والشافعى وأحمد والزيديون من أن المقر يحد بإقراره ولا يؤثر على عقوبته إنكار الطرف الآخر ؛ لأن الإقرار حجة فى حق المقر . وعدم ثبوت الزنا فى حق غير المقر لا يورث شبهة العدم فى حق المقر .

أما الظاهريون فعندهم أن إنكار أحد الزانيين لا يؤثر على عقوبة المقر ؛ لأنهم لا يسقطون الحد بالشبهة ، ولأن القاعدة عندهم أن من أقر إقراراً تاما بحق فى مال أو دم أو بشرة ، وكان عاقلا بالغا غير مكره ، ولم يصل إقراره بما يفسده فقد لزمه إقراره ولا رجوع له بعد ذلك ، فإن رجع لم ينتفع برجوعه ، وقد لزمه ما أقر به على نفسه من دم أو حد أو مال (٣) .

٢٨ — إدعاء أحد الطرفين الزوجية : وإذا أقر أحد الطرفين بالزنا فادعى الطرف الآخر الزوجية ؛ فيرى أبو حنيفة وأحمد أن لا يحد واحد منهما ؛ لأن دعوى النكاح تحتمل الصدق . وبتقدير صدق مدعى النكاح منهما يكون ادعاء النكاح شبهة ويسقط الحد لاحتمال صدق دعوى النكاح .

(١) نهاية المحتاج جـ ٧ ص ٤١٠ — تبصرة الحكام جـ ٢ ص ٧١ وما بعدها — المغنى جـ ١٠ ص ١٧١ .

(٢) المحلى جـ ٨ ص ٢٥٠ .

(٣) تبصرة الحكام جـ ٢ ص ٣٨ — شرح فتح القدير جـ ٤ ص ١٢٠ ، ١٥٨ — أسنى المطالب جـ ٤ ص ٣٢ — المغنى جـ ١٠ ص ١٦٨ — المحلى جـ ٨ ص ٢٥٠ والمحلى جـ ١١ ص ١٥٣ — شرح الأزهار جـ ٤ ص ٣٤٨ وما بعدها .

ويرى مالك والشافعى حد المقر ما لم يثبت قيام الزوجية . وأصول الظاهريين والزيديين تقتضى الأخذ بهذا الرأى[١] .

وإذا ضبط شخص يطأ امرأة فادعى الرجل والمرأة الزوجية ؛ فالقول قولهما على ما يرى جمهور الفقهاء إلا أن مالـكا يرى أن عليهما أن يثبتا الزوجية .

وإذا شهد الشهود بزناها فلا يسقط ادعاء الزوجية الحد إلا إذا أقاما البينة على النكاح ؛ لأن الشهادة بالزنا تنفى كونهما زوجين فلا تبطل بمجرد قولهما . ويحتمل أن يسقط الحد إذا لم يعلم كونها أجنبية عنه ؛ لأن ما ادعياه محتمل فيكون ذلك شبهة[٢]

ويرى ابن حزم التفريق بين ما إذا كانا غريبين أو معروفين ؛ فإن كانا غريبين أو لا يُعرفان فلا شىء عليهما ، ولا يعرض لهما ولو قامت البينة بالوطء ، ولا يكلفان إقامة البينة على النكاح ، وإن كانت المرأة معروفة ومعروف أن لا زوج لها فإن أمكن ما يقول الواطىء فلا شىء عليهما ؛ لأن أصل دمائهما وأبشارهما على التحريم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » فلا يجوز إباحة ما حرم الله إلا بيقين لا شك فيه ، وإن كان كذبهما متيقنا فالحد واجب عليهما[٣] .

٢٩ — بقاء البكارة : وعدم زوال البكارة يعتبر شبهة فى حق المشهود عليها بالزنا عند أبى حنيفة والشافعى وأحمد والشيعة الزيدية ؛ فإذا شهد أربعة على امرأة بالزنا ، وشهد ثقات من النساء بأنها عذراء فلا حد عليها للشبهة ولا حد على الشهود .

ولـكن مالـكا يرى الحد على المرأة ؛ لأن المثبت مقدم عنده على النافى ، ولأن من المحتمل أن يحصل الوطء دون أن يترتب عليه إزالة البكارة . ومن أصحاب هذا الرأى زفر صاحب أبى حنيفة . وهو رأى الظاهريين . ولـكن ابن حزم من فقهاء المذهب الظاهرى يرى أن الحكم يختلف بحسب ما يقرر النساء على صفة عذرتها فإن قلن إنها عذرة يبطلها إيلاج الحشفة ولا بد ، وأنه صيفاق عند باب الفرج فقد أيقنا بكذب الشهود وأنهم وهموا ؛ فلا يحل إنفاذ الحكم بشهادتهم ، وإن قلن إنها عذرة واغلة فى داخل الفرج لا يبطلها إيلاج الحشفة فقد أمكن صدق الشهود إذ بإيلاج الحشفة يجب الحد فيقام الحد عليها لأنه لم يُتيقن كذب الشهود ولا وهمهم[٤] .

---

(١) شرح فتح القدير جـ ٤ ص ١٥٨ — المغنى جـ ١٠ ص ١٥٨ ، ١٥٩ — المدونة جـ ٣ ص ٤١ — أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٣٤ .

(٢) شرح الزرقانى جـ ٨ ص ٨٥ — المغنى جـ ١٠ ص ١٦٢ .

(٣) المحلى جـ ١١ ص ٢٤٢ — ٢٤٤

(٤) شرح الزرقانى جـ ٨ ص ٨١ — حاشية ابن عابدين جـ ٣ ص ٢٢٠ — أسنى المطالب جـ ٤ ص ١٣٢ — المغنى عاشر ص ١٨٩ — المحلى جـ ١١ ص ٢٦٣ — شرح الأزهار جـ ٤ ص ٣٥٠ .

٣٠ — الوطء بالإكراه : ومن المتفق عليه أنه لاحد على مكرهة على زنا لقوله تعالى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » ولقوله : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « عفى لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولأن الإكراه يعتبر شبهة عند القائلين بالشبهة . والحدود تدرأ بالشبهات ، ومن المتفق عليه أنه لا فرق بين الإكراه بالإلجاء وهو أن يغلبها على نفسها ، وبين الإكراه بالتهديد . فقد استكرهت امرأة على عهد الرسول فدرأ عنها الحد ، وأتى عمر بإماء من إماء الإمارة استكرههن غلمان من غلمان الإمارة فضرب الغلمان ولم يضرب الإماء ، كما جاءته امرأة استسقت راعيا فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت . فقال لعلى ما ترى فيها . قال إنها مضطرة . فأعطاها شيئا وتركها .

وإذا أكره الرجل على الزنا فعليه الحد وهو الرأى المرجوح فى مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد والشيعة الزيدية ، وحجة أصحاب هذا الرأى أن المرأة تكره لأن وظيفتها التمكين أما الرجل فلا يكره مادام ينتشر ؛ لأن الانتشار دليل الطواعية . والرأى الراجح فى هذه المذاهب جميعاً أنه لا حد على الرجل إذا أكره لأن الإكراه يتساوى أمامه الرجل والمرأة ؛ فإذا لم يجب عليها الحد لم يجب عليه ، ولأن الانتشار قد يكون طبعاً وهو دليل على الفحولية أكثر مما هو دليل على الطواعية ، ولأن القول بأن التخويف ينافى الانتشار غير صحيح ؛ لأن المكره يخوف عند ترك الفعل لا عند إتيانه ، والفعل فى ذاته لا يخاف منه . وفضلا عن ذلك فإن الإكراه شبهة والحدود تدرأ بالشبهات[1] .

ويرى الظاهريون أن لاحد على مكرهة أو مكره ؛ فلو أمسكت امرأة حتى زنى بها أو أمسك رجل فأدخل إحليله فى فرج امرأة فلا شىء عليه ولا عليها سواء انتشر أم لم ينتشر . أمنى أو لم يمن . أنزلت هى أو لم تنزل ؛ لأنهما لم يفعلا شيئا أصلا ، والانتشار والإمناء فعل الطبيعة الذى خلقه الله تعالى فى المرء أحب أم كره لا اختيار له فى ذلك[2] .

وإذا مكنت المرأة مكرها من نفسها فعليها الحد دونه لأنها ليست مكرهة ، ولو أن الرجل معفى من العقاب ؛ لأن فعلها زنا ، وليس لها أن تستفيد من ظرف الرجل ، وهذا مسلم به فى كل المذاهب .

(١) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٨٠ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٧ ، ١٦٦ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٧ — المهذب ج ٢ ص ٢٨٤ — المغنى ج ١٠ ص ١٥٨ وما بعدها — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٢) المحلى ج ٨ ص ٣٣١ .

العقود والشروط بين التقييد والحرية

للدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق

١ — هذا موضوع جدير بالبحث — فيما أعتقد — لصلته الوثيقة بالحياة العملية التى نحياها اليوم ، هذه الحياة التى تقوم دائماً على تبادل الأموال والمنافع ؛ وسبيل هذا إبرام الناس ما يرون من عقود تزيد وتختلف باختلاف الأيام ، وفى هذه العقود يضعون من الشروط ما يرون أنه يحقق لكل من المتعاقدين ما يحرص عليه من غرض ومنفعة .

ومما يجعل لهذا الموضوع خطراً كبيراً ؛ أن الفقه الوضعى المدنى يرى أن العقد شريعة المتعاقدين ، فلكل من طرفيه أن يشرط ما شاء ما دام يرضى به الطرف الآخر ؛ وإذاً ، فكل عقد أو شرط يعتبر صحيحاً ؛ ما دام قد صدر عن إرادة صاحبه الحرة ، ورضيه الذى تعاقد معه ، ولو كان هذا الشرط لا يحقق المساواة فى الغُرم والغُنم بين المتعاقدين .

***

٢ — إن الفقه الإسلامى ينظر نظرة أخرى إلى هذا الموضوع ؛ موضوع مدى حرية المتعاقدين فى إنشاء ما يشاءان من عقود ، وفى اشتراط ما يريان من شروط ؛ حتى لا يكون هناك بغى ولا عدوان ولا خروج عن الحدود التى وضعتها — لخير الناس جميعاً — شريعة الله أحكم الحاكمين . إن هذه الحدود ترينا مقدار ما فى العقود والشروط التى تعرفها الأسواق المصرية هذه الأيام ، ومنها سوق القطن ، من بُعد عن الشريعة الحقة ، وعن المصلحة العامة ، ومنها مصلحة المتعاقدين أنفسهم ، حتى وصل الأمر إلى أن وزيراً من وزراء المالية يتحدث عن سوق القطن فيقول : يجب أن نبتعد بالسوق عن أن تكون نادياً للميسر أو القمار .

على أن علماء الفقه الإسلامى ليسوا — أنفسهم — على اتفاق فى هذه المسألة ، نعنى مدى حرية المتعاقدين فيما يعملون من عقود ويشرطون من شروط . وهذا الاختلاف الذى نراه بينهم يرجع إلى مبدأين ، تمسك كل جماعة منهم بواحد منهما ، وهما :

(ا) الأصل فى العقود وما يتصل بها من شروط ؛ هو المنع والحظر ، فلا يجوز منها إلا ما يجيزه الشارع .

(ب) الأصل فى ذلك هو الإباحة ، فكل ما لم يمنعه الشارع منها يكون جائزاً .

إلى كل من هذين المبدأين ، أو الأصلين ، ذهب طائفة من الفقهاء المسلمين ، فكان ما نعرف من آراء ومذاهب مختلفة فى الفقه فى هذه المسألة ، وذلك بين أهل الظاهر والأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة .

٣ — تمسك أهل الظاهر : أتباع داود بن على المتوفى عام ٢٧٠ هـ ، ثم على بن أحمد ابن سعيد بن حزم المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، بالأصل الأول لأنهم أهل نصوص لا قياس ، فضيقوا على الناس كل التضييق ، وهم يستدلون لمذهبهم بما روته عائشة رضى الله عنها من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » ، ومن ثَمّ نرى ابن حزم بعد أن اعتمد هذا الحديث يقول : (فصح بهذا النص بطلان كل عقد عقده الإنسان والتزمه ؛ إلا ما صح أن يكون عقداً جاء النص أو الإجماع بإلزامه باسمه ، أو بإباحة التزامه بعينه[1]) كما يستدلون بحديث آخر جاء فى الصحيحين عن جارية اشترتها عائشة أم المؤمنين لتعتقها ، فشرط أهلها أن يكون لهم ولاؤها ، فذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « ابتاعى فأعتقى ، فإنما الولاء لمن أعتق » (أى ليس عليك الوفاء بهذا الشرط لمخالفته للشريعة) ، ثم قام فى الناس وقال : « ما بال أناس يشترطون شروطاً ليست فى كتاب الله ! من اشترط شرطاً ليس فى كتاب الله عز وجل فليس له ، وإن اشترط مائة شرط ، شرط الله أحق وأوثق[2] » .

وإن كان مجرد شرط من الشروط فى عقد من العقود يكون باطلا ، لأنه لم يرد به نص أو لم يثبت بإجماع من المسلمين ؛ فبالأولى يكون العقد الذى هذه صفته باطلا ليس لأحد أن يلتزم الوفاء به .

وهؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب الضيق ، يبررون ما ذهبوا إليه بأن الشريعة التى تصلح لأن تقوم عليها أمة يجب أن تتناول بالتنظيم شئون الأمة جميعاً ، وبخاصة ما كان منها متعلقاً بالعقود ، وبهذا تقوم المعاملات المالية وغيرها بين الناس على أساس من العدل والتعادل بين المتعاقدين ، وهذا ما لا يكون إذا تركت لهم الحرية فى عقد ما يريدون من عقود واشتراط ما يشاءون من شروط ، وإن لم يجىء بها نص أو إجماع .

٤ — وإذا كان هذا هو مذهب الظاهرية والأصل الذى انبنى عليه ، فإن كثيرا

(١) الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم ، مطبعة السعادة سنة ١٣٤٥ ، حـ ٥ : ٣٢

(٢) هذا الحديث روى بروايات مختلفة فى بعض الألفاظ ، وقد ذكره ابن تيمية فى فتاواه حـ ٣ : ٣٢٥

من المسائل عند أبي حنيفة والشافعي وبعض أصحاب مالك وأحمد تنبني على هذا الأصل كما يقول تقي الدين بن تيمية المتوفى عام ٧٢٨ هـ ؛ مادام بعضهم يعلل بطلان عقد من العقود أو فساد شرط من الشروط بكونه لم يرد به أثر أو قياس . كما يصححون بعض الشروط لورود السنة أو الأثر بها وإن كانت مخالفة لمقتضى العقد والغرض منه[1] .

على أنه مهما كان ابتناء بعض مسائل الفقهاء — غير أهل الظاهر — على هذا الأصل ، فإنهم يوسعون جداً في العقود والشروط حين قالوا بالقياس والآثار ، وبذلك لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه أهل الظاهر من التضييق إلى درجة لا يقبلها العقل ولا تقوم عليها المعاملات والعلاقات بين الناس ، هذه المعاملات التي تكثر وتتجدد باختلاف الزمان والمكان .

٥ — أما خصوم أهل الظاهر ، وهم جمهرة الفقهاء وبخاصة الحنابلة وابن تيمية بصفة أخص ، فقد تمسكوا بإباحة كل عقد أو شرط لم يحرمه الشارع ، لأن الأصل في ذلك الإباحة ، مستدلين بقوله تعالى في مفتتح سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وبقوله تعالى في سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . فهذه الآية الثانية لم تشترط لصحة العقد ، الذي به ينتقل ما يملك الواحد من مال أو منفعة إلى الآخر ، إلا أن يكون صادراً عن رضى واختيار ؛ بينما أوجبت الآية الأولى الوفاء بكل عقد دون استثناء متى استوفى شرط الرضا ، ولا يكون الوفاء بالعقد واجباً شرعا إلا إذا كان الشرع يعتبره صحيحاً . وإذاً ، يكون تحريم بعض ما يتعامل الناس به من عقود وشروط ، دفعا للحاجة وتحقيقاً للمصلحة ، بغير دليل شرعي ، تحريماً لما لم يحرمه الله وذلك ما لا يجوز .



وفضلا عن هذا الاستدلال العقلي الذي يتقدم به أصحاب هذا المذهب ، نراهم يستدلون أيضاً من باب النقل — بعد الآيتين السابقتين — بأحاديث وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن هذه الأحاديث قوله : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالا أو أحل حراما ، والمسلمون على شروطهم إلا شرطا حرّم حلالا أو أحل حراماً » ، وقوله : « الناس على شروطهم ما وافقت الحق » . وهذا المعنى ، كما يقول ابن تيمية ، هو الذي يشهد له الكتاب وسنة الرسول[2] .

٦ — على أن هناك فرقا واضحاً يجب ملاحظته بين الأعمال التي هي عادات ومنها

(١) فتاوى ابن تيمية ، حـ ٣ : ٣٢٣ — ٣٢٤

(٢) فتاوى ابن تيمية ، حـ ٣ : ٣٣٣

العقود ، وبين الأخرى التى هى عبادات كالصلاة والصوم ، إذ لا يشترط نص الشارع فى الأولى ويشترط فى الثانية . وفى ذلك نجد الإمام أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى المتوفى عام ٧٩٠ هـ يقول ما نصه [1] : « إن الأصل فى العادات الالتفات إلى المعانى لأمور : أولها الاستقراء ، فإنا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد ، والأحكام العاديه تدور معه حيث دار ؛ فنرى الشىء الواحد يُمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز .. فبيع الرطب باليابس يمتنع حيث يكون مجرد غَرَرٍ وربا من غير مصلحة ، ويجوز إذا كان فيه مصلحة راجحة . ولم نجد هذا فى باب العبادات مفهوما ، كما فهمناه فى العادات .. والثانى ، أن الشارع توسع فى بيان العلل والحكم فى تشريع باب العادات كما تقدم تمثيله ، وأكثر ما علل فيها بالمناسب الذى إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ؛ ففهمنا من ذلك أن الشارع قصد فيها اتباع المعانى لا الوقوف على النصوص ، بخلاف باب العبادات فإن المفهوم فيه خلاف ذلك . وقد توسع فى هذا القسم مالك رحمه الله ، حتى قال فيه بقاعدة المصالح المرسلة ، وقال فيه بالاستحسان ، ونقل عنه أنه قال : إنه تسعة أعشار العلم .. والثالث ، أن الالتفات للمعانى قد كان معلوما فى الفترات (أى التى خلت من الرسل والتشريعات الإلهية) ، واعتمد عليه العقلاء حتى جرت بذلك مصالحهم .. فدل هذا على أن المشروعات فى هذا الباب جاءت متممة لجريان التفاصيل فى العادات ، على أصولها المعهودات . ومن ههنا أقرت هذه الشريعة جملة من الأحكام التى جرت فى الجاهلية ، كالهبة والقسامة .. والقراض .. وأشباه ذلك ، مما كان عند أهل الجاهلية محموداً » .

٧ — هذا ، وإن كان لابد من أن نقول كلمة فى هذين المذهبين المتعارضين : مذهب المانعين لكل عقد وشرط لم يرد الشرع بجوازه ، ومذهب المبيحين لكل مالم يحرمه الشرع من ذلك ؛ فإننا نرى أن الحق أن نأخذ بالمذهب الأول فى عقود الزواج ، وبالمذهب الثانى فى العقود المالية . وذلك حرصا على ما للزواج من حرمة وقداسة ، ولما يطلب له من تكوين أسرة تتطلب الاستقرار ، ومخافة أن تذهب بهذه الصلة الأهواء حين تتحكم فى الشروط . على أنه ينبغى أن نفهم هنا أن الشرط الذى يتفق ومصلحة الزوج أو الزوجة ويدل القياس على صحته ، وإن لم يرد نصا فى الكتاب أو السنة لايعتبر شرطا مخالفا لواحد من هذين المصدرين الكريمين المقدسين ، وإذا يكون صحيحاً . أو بعبارة أخرى ، ينبغى أن نفهم هنا بأن الشرط الذى ليس فى كتاب الله أو سنة

(١) كتاب الموافقات حـ ٢ : ٢١٣ — ٢١٤

رسوله ، هو الشرط الذى لايخالف واحدا منهما . وبذلك الفهم ، نكون قد وسعنا بحق لبعض الشروط التى يشرطها الزوج أو الزوجة ، وتكون موافقة لمقتضى العقد وفيها مصلحة حقة .

أما فى العقود المالية ، فليس الأمر كذلك بحال ، وبخاصة ولكل عصر وبلد عقوده وما تعارفه فيها من شروط ، فيكون من الضيق والتعسير على الناس أن نطلب لكل عقد أو شرط نصا شرعيا يجيزه ؛ بل لنا أن نكتفى فى هذه العقود بصدورها عن رضا واختيار ، وبأنها لاتخالف شيئاً من نصوص القرآن والسنة الصحيحة . وإلا ، لانشلت حركة التجارة التى اتسعت فى عقودها وشروطها إلى حد كبير لم يعرفه الفقهاء ، ولوقع الناس من ذلك فى حرج شديد ، والله يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

على أنه يجب أن نلاحظ تماماً وجوب ألا يكون فى شىء من العقود المالية ومايتعلق بها من شروط ، مايخالف بعض ماجاء به القرآن وسنة الرسول ، وبذلك يعرف مَن يريد الاستقصاء والتفصيل بطلان كثير من عقود اليوم ، وبخاصة العقود التى تجرى فى سوق القطن ، ونتيجة هذا مانشاهده من انهيار أناس وارتفاع آخرين فى هذه السوق التى أصبحت أشبه شىء بناد للميسر أو القمار .



٨ — وبعد هذا الكلام بصفة عامة على هذين المبدأين العامين : مبدأ المنع الذى أخذ به الظاهرية إلى أبعد الحدود ، ومبدأ ، الإباحة الذى اختاره الإمام ابن تيمية وجرى فيه إلى أبعد الحدود كذلك . نجىء إلى شىء من التفصيل فيما يختص بالفريق الآخر المخالف لأهل الظاهر وهذا معناه الكلام على مذهب الأحناف الذى يقرب منه مذهب الشافعية ، ثم مذهب الحنابلة الذى يقرب منه كذلك مذهب المالكية ، وأخيراً مذهب ابن تيمية وبه يتم البحث ، وموعدنا بذلك كله الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى ؟

مراسلة الله

كان أبو على الدقاق يقول : « إذا بكى المذنب فقد راسل الله » .

استغلال الأرض فى الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة فى الباكستان

(٣)

الأحكام الفقهية لاستغلال الأرض :

١ — لا شك أن الإسلام يحض على استغلال الأرض بصفتها موهبة من مواهب الطبيعة . والمعروف أن الأرض نعمة من نعم الله ، وشكر النعمة استغلالها فيما يفيد ،وهو واجب على كل مسلم . وقد جاء فى الحديث من طريق البخارى (ج ٣ — ص ٢٠٨) حدثنا قتيبة (بن سعيد) حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طائر أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » . ولقد ذكر بعض المحدثين كراهة انقطاع المسلم للزرع لما يجلب ذلك من حرص قد يخلف الذل والاستسلام ، كما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لقيس بن بغوث المزارى : « لا آذن لك بالزرع إلا أن تقر بالذل وأمحو اسمك من العطاء » وأنه رضى الله عنه كتب إلى أهل الشام : « من زرع واتبع أذناب البقر ورضى بذلك جعلت عليه الجزية [1] » ولا شك أن هذه روايات ضعيفة لا يعتد بها ،ولا يعدو التحريم أو الكراهة أن تختص بفلاحة الأرض التى يشغل الزارع بها عن الجهاد فى سبيل الله . ولا مشاحة فى أن كل ما يشغل المرء عن مثل هـذا الواجب القدسى مكروه إن لم يكن مجلبا لإثم عظيم .

٢ — إن كان الإسلام قد شجع على استثمار الأرض وزراعتها فما ؛ هى الأشكال التى أقرها الدين الحنيف ، وما الحكمة فى إقرار حالات من حالات الاستثمار وتحريم حالات أخرى ؟ لم يرد فى القرآن نص بهذا الخصوص، وإنما وردت أحاديث صحيحة متفق عليها، كما تواترت رواية عن عمل قام به رسول الله صلوات الله عليه . هـذه الأحاديث هى منارنا فى البحث فلنستعرضها :

(١) عن الأوزاعى عن عطاء عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) المحلى لابن حزم ج ٨ : ص ٢١١

قال : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها فإن أبى فليمسك أرضه »[١]. ومن طريق رافع بن خديج حدثنا عن عمّ له بدرىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله ، ومن طريق البخارى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب السختيانى عن نافع عن ابن عمر أنه كان يكرى مزارعه قال : فذهب إلى رافع بن خديج وذهبت معه فسأله ؟ فقال رافع : نهى رسول الله (ص) عن كراء الأرض[٢]. ومن طريق مسلم عن محمد بن حاتم عن معلى بن منصور الرازى عن خالد — هو الحذاء — عن الشيبانى — هو أبو اسحق — عن بكير بن الأخنس عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال : « نهى رسول الله (ص) أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ »[٣]. ومن طريق مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ص) « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فان أبى فليمسك أرضه »[٤] . ومن طريق ابن وهب عن أبى سعيد الخدرى أنه قال « نهى رسول الله (ص) عن المزابنة والمحاقلة . قال والمحاقلة كراء الأرض »[٥] وعن نافع مولى ابن عمر أنه سمع ابن عمر يقول: « كنا نكرى أرضنا ثم تركنا ذلك حين سمعنا حديث رافع بن خديج[٦] » . ومن طريق أبى داود السجستانى قرأت على سعيد ابن يعقوب الطالقانى قلت : أحدثكم عبد الله بن المبارك عن سعيد أبى شجاع ؟ حدثنى عيسى ابن سهل بن رافع قال « إنى يتيم فى حجر جدى رافع بن خديج وحججت معه فجاءه أخى عمران بن سهل قال : أكرينا أرضنا فلانة بمائتى درهم . فقال دعه فان النبى (ص) نهى عن كراء الأرض[٧] » . وعن رافع بن خديج أيضاً قال : « كنا من أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا (أى المصطفى عليه السلام) عن ذلك فأما بالذهب والورق فلم ينهنا » — متفق عليه — وفى لفظ « فأما بشىء معلوم مضمون فلا بأس[٨] » .

هذا مجمل ما ورد من الأحاديث بخصوص كراء الأرض . وواضح منها أن التواتر فى إيراد حديث رافع يسند التواتر فى حديث جابر . وقد جاء فى كتب الحديث الصحيحة ما لا يدع مجالا للشك فى أنها جميعاً تحرم كراء الأرض لا بذهب ولا بفضة

---

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢١٧
(٢) المصدر السابق .
(٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٥٣ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق .
(٧) سنن أبى داود وسنن النسائى .
(٨) المغنى والشرح الكبير ج ٥ — ص ٥٨٤

ولا بغير ذلك . وقد فصل ابن حزم فى المحلى هـذا البحث وأورد كثيراً من الروايات التى تبطل ما أسند إلى رافع بن خديج قوله : « فأما بالذهب والورق فلم ينهنا » . أما ابن قدامة فى المغنى فقد احتج بأن الحديث الأخير يجعل أحاديث رافع كلها مضطربة ويسقطها . وهو بهذا يبيح الكراء والمزارعة فى شتى صورها ؛ على أن يكون الكراء إما بالذهب أو الفضة . أما صاحب فتح القدير فإنه يرى رأى ابن حزم فى حرمة كراء الأرض ويرجح صحة أحاديث رافع فى النهى .

(ب) أما الواقعة الوحيدة التى حدثت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى ما ورد عن طريق البخارى عن نافع عن عبد الله بن عمر قال : أعطى النبى (ص) خيبر اليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها (١) . وهـذا الحادث متفق عليه ، كما أنه متفق على أن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم عملوا بهذا بعد وفاة النبى عليه السلام .

وأمر معاملة يهود خيبر معروف مشهور . خلاصته أن النبى (ص) بعد أن هزمهم رأى أن يبقيهم على أرضهم . والمشهور أن ذلك كان برجاء منهم حتى يجدوا مرتزقا فأقرهم النبى (ص) على الأرض بياضها وسوادها ؛ على أن يشاطرهم نصف ما يخرج منها (٢) .

هذه الحادثة الوحيدة اتخذت عند بعض الفقهاء دليلا على جواز المزارعة إطلاقا . ورأى البعض الآخر (فتح القدير والإمام مالك) أنها لا تجيز المزارعة إطلاقاً . على أن ابن حزم فى المحلى يؤيد إمكانية المزارعة لما تواتر من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يمارسونها فى عهد النبى (ص) وفى حياته ولو كان منها بأس لنهاهم عنها ، أو لو أراد أن يقيدها لاختط شروطها وبين حدودها (٣) ، كما ذهب ابن قدامة فى المغنى إلى أن أحاديث رافع بن خديج — على فرض صحتها — منسوخة بحادث معاملة أهل خيبر ، فالمزارعة عنده كما تمت بين المصطفى (ص) وبين يهود خيبر صحيحة سليمة وما عداها من أحاديث منسوخ بها .

وجملة رأى الأئمة : أن أبا حنيفة والشافعى وابن حنبل يجيزون هذه المزارعة ويأباها الإمام مالك إلا بشروط خاصة . ولم نجد بين الفقهاء جميعاً من تعرض أو بحث فى حكمة التحريم أو التجويز . اللهم إلا ما ذكره البعض من أن التجويز قام على أن فى المزارعة

---

(١) صحيح البخارى ج ٣ — ص ٢١١ .
(٢) صحيح مسلم ج ١ — ص ٤٥٦ .
(٣) المحلى ج ٨ — ص ٢١٥ .

صلاحا لشأن الناس وإقراراً لنفع كانوا ينتفعون به . وهم وإن اختلفوا فى حكمهم على بعض الصور الخاصة بالكراء والمزارعة ؛ فليس لهذا الخلاف وزن كبير لأنه لا يمس جوهر القضية وإن كان يؤثر فى حواشيها .

٣ — هذا مجمل ما قيل فى المزارعة وكراء الأرض نلاحظ عليه ما يأتى :

(ا) إن الذين حرموا الكراء وأباحوا المزارعة أقروا أحاديث رافع وهى لا تنص على كراء أومزارعة ؛ بل أن مضمونها أن من كانت له أرض فإما أن يزرعها (أى بنفسه) وإما أن يمنحها أخاه دون مقابل . كما استندوا على أن كراء الأرض هو أخذ مال غير مضمون إذ قد لا تنبت الأرض إطلاقاً ؛ فتعيين قدر من الذهب أو الفضه نظير استئجار الأرض أخذ مال بالباطل لأنه مضمون معلوم ، وناتج الأرض مجهول . وهو مالا يجوز شرعاً .

(ب) إن الذين أجازوا الكراء استندوا إلى حديث واحد — على ضعفه — ولم يوردوا حوادث خاصة محددة وقعت فى عهد الرسول (ص) تثبت دعواهم وكانت غاية حجتهم نفع الناس .

(ج) إن من حرم الكراء والمزارعة استند على أحاديث رافع وجابر وكثير من الصحابة ؛ وهى أحاديث عامة تنسحب على الأمرين جميعا . أما معاملة خيبر فقد اعتبروها شاذة عن القاعدة ، ولم يقصد بها نسخ الأحاديث ، وإنما كانت هذه المعاملة لضرورة اقتضتها ظروف السياسة ؛ فهى لم تكن مزارعة بالمعنى المفهوم فقد كان اليهود مغلوبين على أمرهم وهمّ الرسول (ص) بإخراجهم من أرضهم . وقد صارت الأرض ملكا للمسلمين بحق الغلب ، ولم تكن ملكا خاصا لشخص المصطفى عليه السلام . فرجوا النبى (ص) أن يقيهم فى أرضهم يعيشون من ثمرها فأجابهم عليه السلام إلى رجائهم على أن يكون لهم الشطر من الثمر قاصدا أن يتألفهم وأن يجمعهم فى موطنهم حتى لا ينتشروا فى الدولة الوليدة يعيثون فيها فسادا بعد أن حاولوا ما حاولوه من إفساد أمر المسلمين فى المدينة . فكأن إقرار اليهود على أرضهم كان لحكمة سياسية ارتأتها الدولة تأمينا لمصالحها العليا وكأن مشاطرتهم النصف كان لإشعارهم أبداً بخضوعهم للدولة الإسلامية الحديثة وبوجوب التسليم لها . ولعل أكبر دليل على ذلك هو أن المزارعة أياً كانت إنما هى عقد ، ولكل عقد أجل مسمى . أما فى حالة يهود خيبر فلم يُسمَّ أجل ولم تكن إرادة أحد الطرفين حرة فلم تتم أركان العقد . فليس من محكم القول أن

نذهب إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد بهذه المعاملة سن تشريع جديد ينسخ سابق أقواله فى تحريم الكراء والمزارعة المطلقه .

(د) احتج بعض الفقهاء الذين يبيحون المزارعة بأنه تواتر خبر كثير من الصحابة الذين كانوا يفعلون ذلك ، ولم ينههم رسول الله عليه السلام عنها . ونرى ألاّ نأخذ بهذه الحجة لأمرين : الأول أنه ورد عن كثير من الصحابة أيضا أنهم نهوا عن كراء الأرض أو المزارعة عليها ، وهذا التناقض يوجب إسقاط الحجة لا للرأى ولا عليه . والثانى أنه إما أن يكون هؤلاء الصحابة الذين زارعوا قد فعلوا ذلك قبل معاملة خيبر أو بعدها . أما وقد كانت معاملة خيبر فى أواخر أيام المصطفى (ص) فالأغلب أنهم (أو بعضهم) زارعوا قبلها . وفى هذه الحالة إما أن نأخذ بحديثى رافع وجابر فيكون تناقض بين النهى والفعل وهذا مالا يجوز على الصحابة ، وأما أن نسقط الأحاديث فيسقط كل نص ينسحب لاعلى المزارعة وحدها بل على الكراء أيضا وهذا مالم يقل به فقيه . فصح عندنا إذن ما ورد عن المحدثين ، وتناقض وتساقط ما ورد عن فعل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . كما صح أن معاملة يهود خيبر غير ناسخة للأحاديث بل هى عمل من نوع خاص لم يقصد به النبى(ص) إلى التشريع العام فلا يحتج به .

(هـ) إن حادثة معاملة خيبر دليل قطعى عندنا على أن من حق الدولة أن تمتلك الأرض وأن تستثمرها بما تراه الأفضل . ذلك أن هذه الأرض بالذات لم تكن ملكا شخصيا للنبى (ص) وإنما آلت إلى الدولة الإسلامية بحق الفتح كما أسلفنا ، وقد رأى رئيس الدولة أن تظل الأرض ملكا لها ، وأن يستغلها يهود خيبر فى مقابل أن يدفعوا شطر ما يخرج منهـــا . فنظرية التأميم national ization قد تقررت إذن بهذه السابقة ولا محل لنقد هذا الرأى بالقول أن هذه الأرض لم تكن أصلا ملكا للمسلمين انتزعتها الدولة لتستغلها هى من دونهم . إذ المعروف أن القاعدة العامة كانت تقسيم الفىء وأن الفىء حق لهم فالاحتفاظ به للدولة دون تقسيم على مستحقيه تخويل للدولة بلا شك فى أن تضع يدها على حقوق رعاياها متى رأت فى ذلك مصلحة تقتضيها سعادة المجموع . والملكية لا تعدو أن تكون حقا من الحقوق الفردية التى لا يمكن أن تصان فى مجتمع متمدين ما لم تحمها وتقرها الدولة ، فصح إذن أن للدولةحق تأميم الملكيات الفردية بشرطه .

السياسة البربرية في مراكش

عناصرها — مظاهر تطبيقها

للأستاذ علال الفاسي

(٢)

أما المظهر القضائى للسياسة البربرية ؛ فقد لخصته لجنة الأبحاث القيمية فى العمل على تحقيق رغبة الاستعمار الفرنسى فى القضاء على المحاكم الإسلامية ، وإحلال المحاكم الفرنسية محلها بالنسبة لجميع المغاربة على السواء ؛ وذلك وفقا للخطة التى اتبعتها فرنسا فى الجزائر قبل مائةسنة ، ولكن وضع المغرب السياسى ووجود الإطار القضائى لحكومة السلطان يحول فى مراكش دون تحقيق ذلك بصفة واضحة ؛ فيجب إذن البدء فى إلغاء المحاكم الشرعية فى مناطق البربر ، وإحلال الجماعات العرفية مكانها على أن لا يكون ذلك إلا مرحلة انتقال من القضاء الإسلامى إلى القضاء الفرنسى مباشرة ؛ لأن خبراء السياسة البربرية اعترفوا دائما بعدم صلاح الأعراف القبلية لأن تكون قانونا موحداً للمغرب ، كما اعترفوا بالمشاكل التى لا حد لها والتى تنشأ عن تطبيق أعراف تختلف فى كل قبيلة عنها فى القبائل الأخرى ، على أنها فى كثير من جوانب العمل أعراف خيالية لا وجود لموادها ، ولا لأحكامها .

ومنذ صدر مرسوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ والمختصون الفرنسيون يبذلون الجهود الجبارة لخلق أعراف وجمع أخرى وتأسيس جماعات بربرية لإتمام التفرقة المنشودة بين المواطنين فى مراكش ، وعلى الرغم من المقاومة التى لقيتها هذه السياسة من حكومة السلطان مولاى يوسف رحمه الله فإن السلطات الفرنسية والت نشاطها حتى أمكن للمسيو (دولاسال) أحد كبار الكتاب الكاثوليكيين أن يقول : « إن أول وأعظم مظهر للسياسة البربرية يرجع إلى يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ وهو التاريخ الذى صدر فيه مرسوم يعترف ببقاء البربر تحت نظام عرفى ولو كان منافياً للدين والشرع الواجب على كل مسلم اتباعهما ، وكل ما صنع بعد ذلك فهو مستند إلى هذا القرار الذى ما فتىء السلطان — بما جبل عليه من حب للنعرة الدينية — حانقا على صدوره ، ومتألما من وجوده .

وقد كتب هذا الكاتب نفسه فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٧ فى مجلة تاريخ البعثات فقال :

« إنه لم يتم بعد فصل المغرب الذى سيصبح عن طريق الفتح بربريا عن المغرب الذى

سيبقى عربياً ، ولن يتم ذلك بسهولة بسبب المقاومة المستفحلة التى يبذلها السلطان وحكومته ؛ لأن السلطان هو الرئيس الدينى والمدنى فهو لا يريد أن يُضعف سمعته الدينية فى البربر بموافقته على فصلهم عن الشريعة الإسلامية [١] » .

ولكن هذه المقاومة المغربية لم تمنع الإقامة العامة من بذل سائر المحاولات ؛ ولذلك أسس المارشال (ليوطى) سنة ١٩٢٤ لجنة برئاسته مهمتها البحث عن وسيلة لتحقيق الأهداف القضائية للسياسة البربرية ، ويمكن لنا أن نستخرج من محضر إحدى جلسات هذه اللجنة المنعقدة فى يوم ٨ أكتوبر ما يأتى :

١ — لقد أُسست الجماعة القضائية فى القبائل ذات العرف البربرى ، وقد بدأ النظام يعمل عمله ؛ فيجب أن نحدد ما يلزم من إجراءات واختصاصات .

٢ — ليس هناك مانع من تحطيم وحدة النظام القضائى فى المنطقة الفرنسية . وحيث إن الغرض هو تقوية العرف البربرى لدور التوازن الذى يمكن أن تدعو الحاجة إليه ، فلا شك أن هناك فائدة سياسية فى تحطيم المرآة [٢]

إن هاتين الفقرتين تشهدان بأن الحماية هى التى خلقت وأسست الجماعات العرفية التى لم يكن لها وجود من قبل . كما تبينان الغاية التى ترمى إليها الحماية وهى تقسيم البلاد إلى كتلتين حفظا للتوازن الذى قد تدعو إليه حاجة الاستعمار . على أن محاضر هذه الجلسات التى سبق للحركة الوطنية المراكشية أن اكتشفتها ونشرتها تشتمل على كثير من الاعترافات الخطيرة فى الموضوع ؛ فقد صرح أحد أعضاء لجنة أخرى انعقدت فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٣٠ بما يأتى :

« إن من المقرر الآن أن يصدر نص تشريعى يعترف بوجود الجماعة ؛ ولكن يجب أن نبحث هل هذه المخلوقة الجديدة التى تستحق أن يعترف بها . لقد أُسست هذه الجماعة عن طريق إجراءات إدارية ، وتبعا للتعليمات المقيمية الصادرة فى سنة ١٩٢٤ ، أما قبل ذلك فقد كان البربر يترافعون أمام المحكمين » . وقد أجاب رئيس المراقبة بالعبارة الآتية : « إننى أوافق الأستاذ (بيكار) على أن الجماعة لا وجود لها من الناحية القضائية وقد أثبت الأستاذ (برينو) أن الجماعة لا حق لها فى أن تحكم وتقضى » .

وإذن فالجماعة إنما هى قنطرة تُعبر للوصول إلى المحاكم الفرنسية ، وقد صرح بذلك الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف الفرنسية فقال : « إن كل ما وضع فى العدلية البربرية ليس إلا حالة مؤقتة ؛ ولذلك لا ينبغى خلق شىء جديد ، وإنما يجب اتخاذ وسائل

(١) السنة الرابعة عدد ٣ من مجلة (تاريخ البعثات) ص ٣٢٨ .

(٢) انظر مقال الاستاذ محمد اليزيدى فى مجلة (مغرب) عدد مايو ويونيه ١٩٣٣ .

الاحتفاظ لأجل المستقبل ، والاتجاه نحو القضاة الفرنسيين » (جلسة ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٠)

وفى جلسة ٦ مارس من نفس السنة صرح الرئيس المذكور متنبئا : « إنى أرى فى المستقبل قضاة فرنسيين عند البربر ، ولكن لم يحن الوقت بعد . ومع ذلك فلا أرى شيئا يمنع من وصول هذا الوقت »

وقد أوضح الجنرال (نوجيس) فى جلسة ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٠ الوسائل التى سوف تتخذها الإقامة العامة لتحقيق أهدافها فقال : « إن عدد الجماعة يمكن أن ينقص تدريجيا حتى يصبح مَن بقى من الأعضاء مستشارين للقضاة الفرنسيين » .

ولكن هذا التطور لا يخص الجماعات العرفية ، بل يشمل حتى ما بقى من المحاكم الشرعية ؛ ولذلك صرح مدير الأمور الأهلية معقبا على كلام الجنرال : « بأن كل مجهودات الولاة الفرنسيين سواء فى مناطق العرف أو فى مناطق الشرع لا ترمى إلا إلى هذا التطور » .

وفى انتظار هذا التطور استصدرت اللجنة مرسوم ١٦ مايو سنة ١٩٣٦ وهو الذى اشتهر (بالظهير البربرى) فاستطاعت بمقتضاه أن تفصل كل القبائل التى تعدّها الإقامة الفرنسية العامة ذات عرف بربرى عن حظيرة المحاكم الإسلامية ، وهكذا أصبح ما يربو على مليون ونصف من المسلمين المراكشيين يخضعون رغم إرادتهم لمحاكم تقضى بأعراف جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلى القارىء أمثلة من هذه الأعراف :

١ — الزوجة والبنات ، وكل الإناث يعتبرن فى عداد الشىء الموروث .

٢ — تركة المرأة المتوفى عنها زوجها إذا توفيت ولم تعقب ذكوراً ترجع إلى ورثة زوجها الذى مات قبلها .

٣ — الزنا بالبكر أو بالمتزوجة يستوجب أداء تعويض قدره خمسون ريالا .

٤ — دية المقتول ثلاثمائة ريال إن كان ذكرا ، ومائة وخمسون إن كان امرأة [1] .

ولست بحاجة إلى أن أقول إن هذه الأعراف المصطنعة لم تكن لتقوى على البقاء إزاء الشريعة الإسلامية ؛ ولذلك فلابد من أن تزول محاكم الشرع لتفسح لها هى المجال ، ثم ليحس البربر بضرورة الخلاص منها ولو بقبول الانضمام إلى المحاكم الفرنسية . ولقد صرح المسيو (لوسيان سان) مقيم فرنسا العام الأسبق وهو الذى ذيل بإمضائه ظهير عام ١٩٣٠ البربرى « إننا نحن الفرنسيين لا نجبر الشعوب التى فتحناها على الإذعان لنا والاندماج فينا دفعة واحدة ولو بالقوة ؛ وإنما نأمل أن نرى هذه الشعوب تندمج من

(١) مجلة الدراسات الإسلامية سنة ١٩٢٨ عدد ٤ ص ٤٨٥ .

تلقاء نفسها فى العائلة الفرنسية ، وإن الاندماج عن طريق القانون مفيـــد جداً فى نظرى ، فكلما اقتربت القوانين المحلية من قوانيننا أخذنا نتجه نحو اندماج الأجناس الذى هو وحده وسيلتنا للمحافظة على الأمن وأساس طمأنينتنا وخلودنا وليس علينا إلا الشروع فى العمل بعزيمة وثبات [1] » .

تلك هى الغاية التى يحارب المستعمرون من أجلها محاكمنا الإسلامية لأنهم يؤمنون بأن فى بقائها ضمانا لاستقلالنا وبقاء كياننا » .

* * *

ولنرجع الآن إلى الحديث عن العنصر الثالث من عناصر السياسة البربرية وهو ما يتعلق بالتعليم ومناهجه فى قبائل البربر ، وسنرى كيف أن هذه السياسة التى ترمى إلى ابتلاع المغاربة المسلمين فى الأسرة الفرنسية المسيحية ، قد استعملت كل الوسائل العملية والإدارية لخلق كتلتين منفصلتين اصطناعيا ، وليس من الناحية القضائية والسياسية فقط بل حتى من الناحية اللغوية والدينية .

ومتى علمنا أن القائمين على السياسة البربرية وأنصارها هم من رجال الأكليروس الذين يحزّ فى نفوسهم نجاح الإسلام والعروبة فى هذا الجزء من أفريقيا الذى لم يتقبل أبدا دعوة المسيحية ولا ثقافة دولها ، عرفنا مقدار الكفاح الذى يبذلونه فى سبيل القضاء على ثقافة الإسلام ولغة الضاد ، ولئن باءت أعمالهم كلها بالفشل فما ذلك إلا بفضل ثبات المؤمنين المغاربة وتمسكهم بديانة الرسول عليه السلام ، وبلغته التى هى لغة القرآن .

يقول مسيو (جود فورى دو منبين) فى أطروحته (عمل فرنسا فى المغرب فيما يخص التعليم) ص ١١٩ : « من الخطر أن نترك كتلة ملتحمة من المغاربة لغتها واحدة ، وأنظمتها واحدة ، يجب أن نستعمل لفائدتنا الحكمة القديمة (فرّق تسد) ووجود العنصر البربرى أداة نافعة لحفظ التوازن مع العنصر العربى ، ومن الممكن أن نستعمله ضد الحكومة المراكشية نفسها ، على أن المؤلف يعترف فى صفحة ١١٨ بأن اللغـة العربية هى اللغة الاقتصادية والدينية فى المغرب الحالى ، وأن البربرى يعتبر العربية لغة عليا ، ولكن المؤلف يقول مع ذلك فى ص ١١٩ « يجب أن تقوم اللغة الفرنسـية لا اللغة البربرية مقام اللغة العربية كلسان مشترك وكلسان للمدنية [2] » .

ولتحقيق هذه الغاية فليست هناك وسيلة غير التعليم ، يجب أن تكون المدرسة البربرية الخاصة التى لا تعلم اللغة العربية . وذلك ما أنجز فعلا فقد أسست مدارس للبربر

(١) رسالة (فرنسا وسياستها البربرية) ص ٦٧ .

(٢) أنظر كتاب (الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى) ص ١٦٢ .

يحدثناعنها (الكومندان مارتى) فيقول: «إن المدرسة الفرنسيةالبربرية فرنسية بتعليمها وحياتها ، بربرية بتلاميذها وبيئتها ، إذن فليس ثمت واسطة أجنبي ؛ فكل تعليم عربى وكل تدخل من قبل الفقيه ، وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامة تامة ، فنحن نبتعد من تلقاء أنفسنا عن كل مرحلة تصلح لأن تكون مرحلة تبلور إسلامى ، وإن الآراء هنا وفى كل مكان متفقة على هذه النقطة [1] » .

ويحدثنا مسيو (موريس لوكلاى) فى مقاله بعنوان (المدرسة الفرنسيةلدى البربر) فيقول : « يجب أن نحذف تعليم الديانة الإسلامية واللغة العربية من مدارس البربر ، وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية » ثم ختم مقاله بهذه الصراحة : « يجب أن نعلم البربر كل شيء ما عدا الإسلام » .

وطبعى أنه إذا أريد تحويل العناصر البربرية من طبعها الأصلى أن يُعمل بصفة مباشرة فيما يرجع للطفل البربرى . وقد احتاط البرنامج الذى وضع سنة ١٩٢٠ لذلك لحذر من التسامح فى تأسيس الكتاتيب القرآنية ، وقرر منع تعليم اللغة العربية فى المدارس القروية ، وفى سنة ١٩٢٣ تبلورت السياسة البربرية فيما يرجع للتعليم وتحددت فى ضرورة إقصاء أطفال البربر عن كل شيء عربى أو إسلامى ، وتقريبهم من المسيحية والفرنسية . وقد حدد مسيو (دومنيين) هذه السياسة فى أطروحته وتتلخص فيما يأتى :

١ — الإبقاء بقدر الإمكان على ما يوجد من فوارق بين السهول المسلمة والجبال المسلمة ، والاحتفاظ بالتقاليد الموروثة عند البربر والحيلولة بينها وبين كل نفوذ عربى أو إسلامى .

٢ — توجيه البربر فى اتجاه فرنسى ؛ وذلك بمنع تعليم العربية والقرآن بصفة باتة ، وبعدم ارتباط المعلم الفرنسى بصفة ما مع أى فقيه يبقى له وجود فى القرية . وعلى العكس فإن تعليم اللسان الفرنسى هو الغاية الأولى من المدرسة البربرية ، يجب أن تصبح اللغة الفرنسية لسان الإدارة والاقتصاد عند البربر وأداة الحضارة العصرية بالنسبة لبرابرتنا .

لم تكن هذه السياسة مجرد أمان يتحدث بها كُتاب خياليون أو يؤمن بها استعماريون مثاليون ؛ بل كانت على العكس نتيجة لرغبة شديدة ممن يتحملون مسئولية الحماية ، كما يدل على ذلك المنشور الذى سبق أن أصدره المارشال (ليوطى) وقد جاء فيه: « ليس من حقنا قبل كل شيء أن نعلم اللغة العربية ؛ لأن اللغة العربية من عوامل الإسلام فهى لغة القرآن ، وتقضى مصلحتنا بأن يتطور البربر خارج نطاق الإسلام . أما فيما يتعلق

---

(١) (مغرب الغد) ص ٢٤١ .

باللغة فيجب أن ننتقل من البربرية إلى الفرنسية ؛ ولذلك يجب أن يكون عندنا متبربرون فلابد لضباط الأمور الأهلية من أن يتعلموا لهجات البربر » .

لقد كان هذا المنشور دستوراً حرص الولاة الفرنسيون من عسكريين ومدنيين على تطبيقه ، فغدوا يستعملون كل نفوذهم لمقاومة الفقهاء ، ومطاردة معلمي اللغة العربية والدين الإسلامي ، بل أصبحوا يعتقلون في داخل المساجد الأساتذة المسلمين الذين لاذنب لهم غير تعليم الناس أصول التوحيد وقواعد الدين . ومن أمثلة ذلك مافعله (القبطان عيار) في مركز عين اللوح حيث حكم بالسجن عاما كاملا على السيد عبد العزيز بن عبد الصادق بتهمة أنه يعاكس سياسة الحماية البربرية . أما جريمته فهي أنه ألقى دروساً في مسجد القرية في شرح منظومة ابن عاشر في التوحيد وأحكام الطهارة والصلاة ، وقد اعتقل مع هذا الأستاذ مؤذن المسجد؛ لأنه لم يطرد الفقيه، ولم يبلغ خبره للادارة الفرنسية . ووقع مثل هذا في جهات عدة حتى انقطعت عمليا كل دروس الدين بالمساجد ، ولم يعد يجد البربر من يعلمهم أحكام دينهم إلا عن طريق السر وفي طي الخفاء .

تلك هي خطوط السياسة البربرية التي تسيّر العمل الفرنسي في مراكش ، وهي التي سبق أن سيرت عملها في تونس والجزائر من قبل ، ونحن لا نريد أن نتحدث عما أثارته تلك السياسة من غضب واحتجاج في داخل المغرب وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي ؛ حتى كانت السبب المباشر لخلق الحركة الوطنية الاستقلالية في مراكش . تلك الحركة التي يعلم الكل من أنبائها الشيء الكثير ، وإنما نريد أن نؤكد أن هذه السياسة ما فتئت الدستور الذي يؤمن به مصطلحو السياسة الأهلية ، ورجال الإقامة العامة الفرنسية في بلادنا ، وأنها هي المسئوله أولا وأخيراً عن كل الدسائس التي تحيكها السياسة الفرنسية في مراكش ضد سيادة البلاد ووحدتها ودينها وثقافتها وملكها .

وإن عرض هذه الحقائق من جديد على الرأي العام العربي والإسلامي ، ليذكّر بضرورة العناية الزائدة بتتبع أحوال المسلمين في المغرب ، وما يحيكه الاستعمار الفرنسي من دسائس لا قبل لهم بدفعها إلا بعون الله ، ومعاضدة إخوانهم المسلمين .

إن القضية قضية حرب قاسية يعلنها الاستعمار على الإسلام ، والثقافة الإسلامية واللغة العربية في مراكش . فواجب كل مسلم على وجه الأرض أن يذكر مراكش ويشجعها على المضي في جهادها المقدس لحماية الدين الإسلامي والاحتفاظ باللغة العربية ، وإن كل تقصير في هذا الشأن يُسأل عنه أصحابه أمام الله وأمام المسلمين الأولين ، الذين أورثونا الدعوة المحمدية غضة طرية، وأرادونا أن نكون مثلهم أهلا لرعايتها ،وتبليغها لمن بعدنا إلى يوم الدين .

صفحة من تاريخ الجهاد الإسلامى فى الهند

لسماحة السيد أبى الحسن الندوى

وكيل ندوة العلماء بالهند

[شاهد القرن الثالث عشر الهجرى حركة دينية قوية واسعة ، وجهاداً إسلامياً عظيما لم يعرفه التاريخ الإسلامى منذ قرون ؛ فقد قام فى الهند فى فجر هذا القرن إمام من كبار أئمة الدعوة الإسلامية وهو السيد أحمد بن السيد عرفان الحسنى المولود فى رائى بريلى (فى المقاطعات المتحدة فى الهند) عام ١٢٠١ هـ ، ودعا إلى الدين الخالص ، وأشعل فى القلوب شعلة الإيمان والحماسة الإسلامية والجهاد فى سبيل الله ، ونظم جماعة كبيرة ، وأحسن تربيتها الدينية والحربية وهاجر معها من طريق بلوجستان وأفغانستان إلى حدود الهند الشمالية واتخذها مركزاً لدعوته ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز وتأسيس الدولة الإسلامية على منهاج الكتاب والسنة ، وقد هزموا سكانها الذين احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب فى معارك كثيرة ، وأسسوا دولة شرعية فى الحدود الهندية الشمالية الغربية تشتمل على بشاور وما جاورها من البلدان والقرى ، ونفذوا الحدود الشرعية وطبقوا النظام الإسلامى المالى والإدارى تطبيقاً دقيقاً . ولكن ثارت عليهم القبائل التى تقطن الحدود لمصادمة هذا النظام لمآربهم الشخصية وعاداتهم الجاهلية ، وقلبوا هذا النظام ثم اصطدم المجاهدون بجيش سكم فى وادى بالاكوت فاستشهد الإمام أحمد وصاحبه الشيخ إسماعيل وكبار أصحابهما عام ١٢٤٦ هـ ولجأ الفل إلى الجبال ، ولم يزل هؤلاء وأصحابهم فى الهند قائمين على الحق باذلين فى ذلك النفس والنفيس ، والإنجليز يطاردونهم ويضطهدونهم ويصادرون أملاكهم وأموالهم ، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة ، وهم صابرون محتسبون ، لا يضطربون ولا يتزعزعون ، ولا يلينون ولا يستكينون . وإلى إخواننا فى مصر وهم فى كفاح مع الإنجليز نقدم فصلا رائعاً من فصول هذا التاريخ المجيد ، ورواية من روايات البطولة الإسلامية والإيمان القوى عسى أن يتزودوا منها بقوة جديدة ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض ...]

فى اليوم الثانى من شهر مايو سنة ١٨٦٤ م جلس (إيدروس) القاضى الإنكليزى على كرسى فى محكمة أنباله وجلس بجانبه أربعة من وجهاء البلد ليروا رأيهم فى القضية ، ووقف أمام هؤلاء أحد عشر رجلا تنطق وجوههم وملامحهم بشرفهم وبراءتهم ، ولكنهم اعتُبروا من كبار الجُناة والمجرمين ؛ فإنه يقال إنهم دبروا مؤامرة ضد الحكومة الإنكليزية فى الهند وكانوا يساعدون أنصار السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد

والمجاهد الجليل الشيخ إسماعيل الشهيد على حدود أفغانستان بالمال والرجال يرسلونها سراً من داخل البلاد بحكمة عجيبة ، وقد وضعوا لمراسلاتهم لغة رمزية ، وكانوا يجمعون إعانات من رعايا الإنكليز أنفسهم ويرسلونها إلى مركز الثوّار . عثرت على ذلك الحكومة بوشاية جندى مسلم فى جنود الإنكليز وأسرتهم فى بتنة وتهافيسر ولاهور وحاكمتهم وهذا يومٌ يصدر فيه الحكم عليهم .

غصّت المحكمة بالزائرين فقد كانت القضية حديث المجالس ، وحان صدور الحكم فشخصت الأبصار وأصغت الآذان واضطربت القلوب وخفتت الأصوات ؛ وإذا بالقاضى يتكلم فى صوت الغضبان ويخاطب شاباً جميلاً قوياً يظهر أنه ربيب نعمة وسليل شرف .

« إنّك يا جعفر رجل عاقل متعلم ، ولك معرفة حسنة بقانون الدولة ، وأنت عمدة بلدك ومن سراته ، ولكنك بذات عقلك وعلمك فى المؤامرة والثورة على الحكومة ، وكنت واسطة فى انتقال المال والرجال من الهند إلى مركز الثوّار ، ولم تزد إلا أن جحدت وعاندت ، ولم تثبت أنك كنت مخلصاً وناصحاً للدولة ، وها أنا ذا أحكم عليك بالإعدام ومصادرة جميع ما تملك من مالٍ وعقارٍ ، ولا يُسلَّم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك ، بل يدفن فى مقبرة الأشقياء بكل مهانة ، وسأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلّقاً مشنوقا » .

استمع الشابّ فى سكينة ووقار ، ولم يتغيّر ولم يضطرب ، ولمّا انتهى القاضى من كلامه قال محمد جعفر : « إن النفوس والأرواح بيد الله تعالى ، يُحيي ويميت وإنك أيها القاضى لا تملك حياة ولا مماتاً ولا تدرى من السابق منا إلى منهل الموت ؛

فو الله ما أدرى وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أوّلُ »

ثار الرجل غضباً وجُنّ جنونه ، ولكنه قد أطلق آخر سهم من سهامه لا يملك غيره .

استبشر محمد جعفر حين صدر عليه الحكم فتهلّل وجهه فرحا ، كأنما تمثلت له الجنّة وتمثلت له الحور والقصور وتمثّل ببيت الشاعر :

هذا الذى كانت الأيام تنتظر فليُوف لله أقوام بما نذروا»

أخذ الناس العجب مما رأوا ، ودنا إلى محمد جعفر ضابط إنكليزى يقال له (بارسن) وقال له : لم أر كاليوم ، قد حُكِم عليك بالإعدام وأنت مسرور مستبشر ،

قال محمد جعفر : — « ومالى لا أفرح ولا استبشر وقد رزقنى الله الشهادة فى سبيله ، وأنت يا مسكين لا تدرى حلاوتها » .

وحكم القاضى على رجلين آخرين بالإعدام أحدهما شيخ تلوح عليه سيماء الصالحين وآية العابدين ، قد تلقّى النبأ فى سرور وشكر ، وهو مولانا يحيى على الصادقبورى أمير هذه الجماعة ، والآخر شابّ يظهر أنه من الأغنياء والتجار الكبار ، وأن أصله من بنجاب ، وهو الحاج محمد شفيع ، وحكم على الثمانية بالنفى المؤبّد .

سمع الناس المجتمعون الحكم فى حزن وأسف شديد وفاضت العيون ، وسالت الدموع ، واجتمع الناس من رجال ونساء على جانبى الشارع إلى السجن ينظرون إلى هؤلاء المظلومين ويرثون لهم .

ووصلوا إلى السجن ونُزعت ثيابهم وألبسوا ثياب المجرمين ، وسُجن كل واحد من الثلاثة فى حجرة ضيّقة مظلمة لايدخل فيها الهواء ولا ينفذ فيها النور ، وباتوا فيها فى حرّ شديد بِشرّ ليلة بات بها قوم ، وجاءت بكرة برقيةٌ تسمح لهم بالمبيت فى الميدان ،

وفى النهار أعيدوا إلى حجراتهم الضيقة ، وكان لا يمكن لأحد أن يعيش فى مثل هذه الحجرة الضيّقة مدة أسبوع ، ففتح بابها وعُيّن جندى يحرس هؤلاء وكان هؤلاء الجنود أكثرهم من الكفار ، فكان مولانا يحيى على يغتنم الفرصة ويأتسى بأسوة يوسف الصديق عليه السلام ، ويخاطب الحارس ويقول : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » فيظلّ الرجل باكياً فإن نُقِل من مكانه حزن حزناً شديداً .

وهكذا غرس الشيخ فى قلوب كثير من أصحاب السجن عقيدة التوحيد ، وبذر فيها بذور الإيمان ، وكم من رجال أسلموا ، وكم من ناس تابوا ، وكان الشيخ لايضيّع فرصة فإذا صادف أحداً أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر .

وبدأ زبانية السجن يصنعون لهؤلاء حبلاً وعوداً للشنق على مرأىً منهم ومسمع ، وهؤلاء يرون كل ذلك مطمئنّين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما مولانا يحيى على فهو من أشد الناس فرحاً كأنه من شوق الجنة فى جنة ، ومن انتظار النعيم فى النعيم ، ينشد الأبيات فى حنين ووجد ، ويتمثّل بما قال سيدنا خبيب رضى الله عنه عند شنقه .

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً … على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ … يبارك على أوصال شلو ممزّع

وكذلك رفقته ، وجوه ضاحكة مستبشرة ، ونفوس هادئة مطمئنة ، وقلوب راضية مسرورة ، خشوع في الصلاة ، وعبادة في نشاط ، وذكرٌ وتسبيح وتلاوة آيات ، وحنين ووجد وإنشاد أبيات ،

مات القاضي الإنكليزي — الذي حكم على هؤلاء الثلاثة بالإعدام — فجأة على إثر الحكم ،وجُنّ الضابط الإنكليزي (بارسن) الذي ألقى القبض على محمد جعفر وضربه يوماً من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثامنة مساءً ، ومات في جنونه شر ميتة فكان كما أنذر محمد جعفر . ورب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره .

وكان يدخل إلى السجن كثير من الإنكليز والإفرنجيات يتفرّجون على هؤلاء السجناء ، ويشمتون بمصير الأعداء ، وكانوا يقضون العجب من سرورهم ونشاطهم ، ويسألونهم لماذا لا تحزنون يا هؤلاء وأنتم على عتبة الموت وعلى موعدٍ من الشنق ؟ ! فيجيبونهم ، هذا لأجل الشهادة التي ليس فوقها نعمة وسعادة !

ويرجعون إلى الحكام الإنكليز ويحدثونهم بما رأوا وبما سمعوا ، فيزدادون غيظا على غيظ ، ولكن ماذا يصنعون ؟ إنهم إذا أطلقوهم فقد أطلقوا أعداء قد ثاروا على الدولة ، وأنهم سيرجعون إلى ذلك ، وإذا شنقوهم وقتلوهم فقد بلّغوهم أملهم واجتهدوا في سرورهم .

قد عزّ على الإنكليز كل ذلك ولم تطب أنفسهم به .

فكرّوا في القضية وفكروا وفكروا ، ووجدوا طريقاً وسطا بين القتل والإطلاق ، والإنكليز أمة قانونية ذكية .

في يوم من الأيام جاء حاكم المدينة الإنكليزي إلى السجن وتلا على الثلاثة المحكوم عليهم بالإعدام حكم محكمة الإستئناف :

« إنكم أيها الثوار تحبّون الشنق وتعدّونه شهادة في سبيل الله ولا نريد أن نبلغكم أملكم ، وندخل عليكم السرور ، ولذلك نفسخ حكم الإعدام ونحكم عليكم بالنفي المؤبّد إلى جزائر سيلان » .

وهنا قُصّت لحاهم وشعر رؤوسهم ، وكان مولانا يحيى على يرفع الشعر ويخاطب لحيته المقصوصة ويقول : « وفي سبيل الله ما لقيتِ » .

وشنق إنكليزى بحبل وعود أعداً لأولئك المسلمين فانعكست الآية .

وأمر المسجونون بالاشتغال بأعمال شاقة ، وأمر مولانا يحيي على بنزع الدلاء من بئر ، وكانت كبيرة وثقيلة لا ينزعها الشبان الأقوياء إلا بشق الأنفس ، والأستاذ شيخ ضعيف ، وكان اليوم صائفاً شديد الحرّ ، فنزف الدم فى بوله ولكنه استمرّ فى شغله صابراً محتسباً لا يشكو ولا يئن ، ثم نُقل إلى عمل سهل فكان يقوم به بأمانة ونصيحة ويوصى المسجونين الآخرين بذلك أيضاً ويقول لهم : إذا كنتم تتمتعون هنا بطعام ولباس فما بالكم لاتؤدّون وظيفتكم بأمانة ونصيحة .

ولم يزل الشيخ فى السجن آمراً بالمعروف . ناهياً عن المنكر . داعياً إلى الله . واعظاً مرشداً حتى تاب كثير من المجرمين وأنابوا إلى الله .

ونقل الشيخ من أنباله إلى لاهور وأقام فى سجنه عاماً كاملاً وكان هناك الجناة واللصوص وقطاع الطريق والفسّاق ؛ فكان يقبّح لهم الجنايات والفسوق والعصيان ، ويزيّن لهم الدين والتقوى والعفاف ، ويحثهم على الطاعة والتوبة والإنابة وإصلاح الحال ويدعوهم إلى التوحيد والمحافظة على الصلوات والصيام ويحذّرهم من عذاب الله ونقمته فتاب كثير من اللصوص وقطّاع الطريق وحسن حالهم وأخلصوا لله الدين وتابوا وأقاموا الصلاة .



وكان من هؤلاء رجل من بلوخستان شديد البطش جبّاراً ، وقد سطا بخدم السجن مراراً وضربهم بسلاسله وكان لا يقوم بأعماله ووظائفه وقد عوقب عقاباً شديداً فلم يتب ولم يَلِن ، ويئس منه زبانية السجن وقطعوا منه الرجاء ، وصادف مبيته مرة بالقرب من الشيخ ، وأثر كلامه فى قلبه فحسن حاله وصار يؤدّى وظيفته وفكت سلاسله وأغلاله ، فصار يحافظ على الصلوات الخمس ويبكى خوفاً من الله ومن رآه شهد بأنه ولىّ من أولياء الله .

ولم يزل الشيخ ورفقته ينتقلون من سجن إلى سجن ، ومن مجلس إلى مجلس حتى وصلوا فى الثامن من ديسمبر سنة ١٨٦٥ م إلى (بورت بلير) من جزائر اندمان ، ومات الشيخ هناك ، بعد عامين قضاهما فى عبادة ودين ودعوة الخلق إلى الله ، وكان ذلك لعشرين من فبراير سنة ١٨٦٨ م

أما الشيخ محمد جعفر فقد صدر الحكم بالعفو عنه وإطلاقه فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣ بعد ما لبث فى السجن ثمانية عشر عاماً .

يا مصر !...

حجازى

بقلم سماحة السيد محمد البشير الإبراهيمى

رئيس جمعية العلماء بالجزائر

« افتتح سماحة السيد بهذه الكلمات النفيسة عدداً من صحيفته المجاهدة (البصائر) خاصاً بمصر، وبعث بها إلى (المسلمون) جزاه الله عن مصر المسلمة كل خير » .

نسميك بما سماك الله به فى كتابه ، فكفاك فخراً أنه سماك بهـذا الاسم الخالد الذى تبدلت أوضاع الـكون ولم يتبدل ، وتغيرت ملامح الأرض ولم يتغير ، وحسبك تيهاً على أقطار الأرض أنه سماك ووصفها ، فقال فى فلسطين : (الأرض المقدسة) و (القرى التى باركنا فيها) وقال فى أرض سبأ (بلدة طيبة) ولم يسم إلا الطور وهو جبل ، ومكة وهى مدينة ، ويثرب، وهى قرية ، فتيهى وافخرى بهذه الميزة التى خصـّك الله بها ، وخذى منها الفأل على أنك منه بعين عناية لا تنام ، وبذمة رعاية لا تخفر ، وبجوار أمن لا يخزى جاره . . .

* * *

نأسى لك — يا مصر — أن أنزلتك الأقدار بهـذه المنزلة التى جلبت لك البلاء ، وجرت عليك الشقاء ، وأن حبتك هذا الجمال الذى جذب إليك خطاب السوء من الأقوياء الطامحين ، والقواد الفاتحين ، وأن أجرى فيك هذا النيل العذب الذى كان فتنة الخيال البشرى ، وكان وثن القدماء فتقربوا إليه بالنذور والقرابين ، وكان طغوى فرعون ذى الأوتاد فحرك فيه نزعة الألوهيـة ، فتوهم أن شاطئيه الأخضرين هما نهاية الـكون ، وأنهما كفاء لملك الله الطويل العريض ، وأن وضعك من هذا الـكوكب الأرضى فى موضع الواسطة من القلادة ، فتعلقت بك الأبصار حتى : (كان عليك من حدق نطاقا) وأن جعلك برزخا فاصلا بين الشرق والغرب فـكنت — على الدهر — مجال احتراب بين الشرق والغرب ، فصبراً يامصر فهذا الذى تعانيه هو مغارم الجمال والشرف والسلطة . . .

* * *

سموك (عروس الشرق) فـكأنما أغروا بك الخطاب ، وهجهجوا فيك الآساد الغلاب

وسموك (بمنارة الشرق) فلفتوا إليك الأعين الحزر ، وولوا نحوك الأعناق الغلب . وقديماً سموا بغداد (دار السلام) لجنوا عليها ، وكأنما ولوا عليها المغيرين ، ولو سموها (دار الحرب) لأوحى الاسم وحده بما تنخلع منه قلوب الطامعين وتخنس له عزائمهم ، وتنكسر لتصوره الجيوش اللجبة ، فغفراً — يامصر — فماهذه الأسماء إلا من هيام الشعراء.

* * *

وما زلت — منذ كنت — مهوى أفئدة العظماء الفاتحين ، فأخذوك اقتساراً وصلحاً ، وحازوك طوعاً وكرها ، وما منهم إلا من مهرك المهر الغالى ، وساق إليك الثمين المدخر ؛ بما خلد فيك من آثاره ، وبما خلف فيك من سمات قومه ومعانيهم . حازك الإسكندر ؛ فخلد فيك الإسكندرية ، وملكك قمبيز ؛ فخلف فيك شيات من نخار فارس وخيلائها ،وحل فيك بطليموس ؛ فخلف فيك آثاره من حكمة يونان ، وداعبك قياصرة الرومان ؛ فخلفوا فيك أثراً من عظمة الرومان ، وفتحك عمرو ؛ فمهرك بيان العرب كله ، وهداية الإسلام كلها . ففخراً — يا مصر — فهذه المخايل اللائحة على صفحاتك هى بقايا مهورك الغالية ، وإن أعمها قيمة — وحقك — وأثبتها أثراً ، وأبقاها بقاء ، وأشبهها بشمائلك ، لمهر عمرو . فما زلت منذ تفيأت ظل الإسلام الظليل ، تجدين منه فى كل داجية نجماً ، ووراء كل ظلمة فجراً ، وما زلت كلما شكوت ضراً فى دينك ، يخف إليك من يكشفه ، وكلما شكوت شراً فى دنياك يخف إليك من يدفعه . . .



خف إليك (جوهر) حين لحقتك علامة التأنيث ، وتقلب على فراشك العبيد ، وخف إليك (صلاح الدين) حين امتهن فيك الدين ، وخف إليك « سليم » حين لعبت بك أهواء المماليك ، وخف إليك « على » حين تحكم فيك الصعاليك . تأخروا بركبك عن زمانك ، فألحقك بزمنك ، وأراد لك أن يكون محلك من الغرب أماماً ، وأن تكونى من الشرق أماً وأمة وإماماً ؛ فما عابوك ، ولكنهم هابوك فنصبوا لك فى كل حفرة عاثوراً ووضعوا لك فى كل فج فخاً ، وأجمعوا على أن لاتكون لك جارية فى بحر ، ولاسارية فى بر ، فمن بعض ذلك كل ما تعانين . .

لئن كانت أزماتك فى التاريخ كثيرة ؛ فكلها إلى انفراج عاجل . ومن المؤلم أن تطول بك المحنة فى هذه الدورة من أدوار الفلك ، وأن تبتلى بخصم لئيم الخصومة والكيد يمده زمنه بالقوة والأيد ، وأن يستحل حرماتك غاصب غريب لا تجمعك به نسبة لشرق ، ولايلتف منكما — إلى آدم — عرق بعرق ، فيجعل منك أداة

لكيده ، وجارحة لصيده ، ومطية للصوصيته ، وطريقاً لظلمه وظلامه. فلو أن المسالك ، تشترك في الإجرام مع السالك — لكان لك شرك في كل ماحمل الإنجليز من أوزار ، ولحمّلك العدل كفلا من مآثمهم في الشرقين . إذ لولا قناتك مانبتت له على أديم الشرق قدم ، فليتك تعاسرت بالأمس في حفر هذه القناة ؛ أو ليتك تصنعين بها اليوم ماصنع العرب بمناة . فتوسعين هذه ردماً ، كما أوسعوا تلك هدماً .. حتى إذا ملكت أمرك حفرت ماپرويك ، لا مايرميك ، وما فضل ماء استنبطته يداك ، لينتفع به عداك ، وماذاد الأباة عن الحياض إلا لتكون لهم ورداً .

* * *

لاتوحشتك غربة .. إن مئات الملايين من القلوب رفافة على جنباتك . حائمة على مواردك . هائمة بحبك . تقطع الآنات في التفكير فيك . ولاتقطع الأنات من الامتعاض لك ، وإن مئات الملايين من الألسنة رطبة بذكرك . متحركة بمدحك . ناطقة بفضلك متغنية بمحاسنك ، وإن هذا لرأس مال عظيم . لم تظفر به قبلك يدان .

أنت اليوم مثابة العروبة ؛ في ثراك حيي بيانها ، وبسقت أفنانها ، وفي رياضك تفتحت أزهارها ، وغردت بلابلها . ففي ذمة كل عربي حر الدم لك دين واجب الوفاء . وهذا أجل الوفاء .

وأنت اليوم قبلة المسلمين . يولون وجوههم إليك كلما حزبهم أمر ، أو حلت بهم معضلة ، وينفرون إلى معاهدك يمتارون العلم منها ، وإلى كتبك يصححون الفكر والرأى عنها ، وإلى علمائك يتلقون الفتيا الفاصلة في الدين والدنيا عنهم فلك — بذلك — على كل مسلم حق ، وهذا أوان الحاجة إليه

وأنت اليوم مأزر الإسلام فكلما سيم الهوان في قطر ، أو رماه زنديق بنقيصة ، فزع إليك واستجار بك ، يتلمس الغوث ، ويستمد الدفاع ، فلك على المسلمين في المشارق والمغارب فضل الحماية لدينهم ، وعليهم أن يطيروا خفافاً وثقالا لنصرتك ، ثم لا منة لهم عليك ولا جميل .

وكيف بك — مع هذا — لو كنت مظهراً للاسلام الصحيح ، ولمثله العليا في العقائد والأعمال والأحكام ؛ إذن لكنت قدوة في إحياء سننه التي أماتتها البدع وفي إقامة أعلامه التي طمستها الجهالات ، وفي بعث آدابه التي غطت عليها سخافات الغرب ، وفي نشر هدايته التي طوتها الضلالات ؛ إذن لحييت وأحييت .

ومن الغريب أنك قادرة على تغيير ما بك من هذه الأدران . ثم لم تغسلي ، وأنك قادرة على إعادة الإسلام إلى رسومه الأولى . ثم لم تفعلي . ويميناً برة لو فعلت

لما حل بك ما حل ، ولو فعلت لقدت المسلمين بزمام ولكنت — بهم — للعالم كله إماما أى إمام .

***

.. عهدك التاريخ صخرة من معدن الحق ، تتكسر عليها أمواج الباطل ، فكونى أصلب مما كنت ، تنحسر الأمواج وأنت أنت . . .

. . أقدمت فصممى . . . وبدأت فتممى . وحذار من التراجع فإن اسمه الصحيح « هزيمة » وحذار من التردد ، فإنه سوس العزيمة . . .

إنك فائزة فى هذه المرة بأقصى المطلوب ، لأنك أردت فصممت ، وإنما يعين الله من مخلوقاته المصممين ، وإذا كان المطلوب حقاً ، وكان الطالب عدلا ، فما أكبر الأعوان على نيله التصميم ، فصممى ثم صممى . . .

إن قلبى يحدثنى حديثا كأنما استقاه من عين اليقين ، وهو أنك فائزة منتصرة ظافرة فى هذه المعركة ؛ لأنك استعملت فيها سلاحا كنت تنشدينه فلا تجدينه وهو الإرادة يحدوها التصميم . يمدها الإيمان بالحق . يربط ثلاثتهما الإجماع على الحق . .

إنك فائزة فى هذا اليوم بالأمنية التى عملت لها قرونا وإن فوزك فوز للعرب وللاسلام وللشرق . فياويح دعاة الوطنيات الضيقة المحدودة ؛ إذا أقدم الأبطال نكصوا وإذا زاد الناس نقصوا . ويحهم إن المستعمر سارق ، وإن السارق الحاذق لا يسرق إلا فى الظلمة أو فى الغفلة ؛ فإذا انحسر الظلام ، أو انقشعت الغفلة ولّى مدبراً بالخيبة والحسرة ، وإن مصر لفى فجر صادق ، وإنها لفى يقظة صاحية ، فأى موضع يسع السارق فيها ؟

صممى وأقدمى ، ولا يخدعنك وعد ، ولا يزعجنك وعيد .

إن الخصوم — كما علمت — لئام ؛ وإن اللؤم والجبن توأمان منذ طبع الله الطباع ؛ فحركى فى وجوههم تلك القوى الكامنة فى بنيك يرتعدوا . .

صممى وقولى للمتغافلين الذين يعذلونك على الإقدام : « إن أضيع شىء ما تقول العواذل » .

***

انثرى كنانتك — يا كنانة الله — فإن لم تجدى فيها سلاح الحديد والنار فلا تراعى ، واحرصى على أن تجدى فيها السلاح الذى يفل الحديد ، وهو

العزائم ، والمادة التى تطفىء النار ، وهى اتحاد الصفوف ، والمسن الذى يشحذ هذين ، وهو العفة ، والصبر ؛ فلعمرك — يا مصر — إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار ، إلا ساعة من نهار ، ولكنهم قاتلوك فى الزمن كله : بالأستاذ الذى يفسد الفكر ، وبالكتاب الذى يزرع الشك ، وبالعلم الذى يمرض اليقين وبالصحيفة التى تنشر الرذيلة ، وبالقلم الذى يزين الفاحشة ، وبالبغى التى تخرب البيت ، وبالحشيش الذى يهدم الصحة ، وبالممثلة التى تمثل الفجور ، وبالراقصة التى تغرى بالتخنث ، وبالمهازل التى تقتل الجد والشهامة ، وبالخمرة التى تذهب بالدين ، والبدن والعقل والمال ، وبالشهوات التى تفسد الرجولة ، وبالكماليات التى تثقل الحياة ، وبالعادات التى تناقض فطرة الله ، وبالمعانى الكافرة التى تطرد المعانى المؤمنة من القلوب ، فإن شئت أن تذيبى هذه الأسلحة كلها فى أيدى أصحابها فما أمرك إلا واحدة ، وهى أن تقولى : إنى مسلمة . . ثم تصومى عن هذه المطاعم الخبيثة كلها ... إن القوم تجار سوء ، فقاطعيهم تنتصرى عليهم ، وقابلى أسلحتهم كلها بسلاح واحد ، وهو التعفف عن هذه الأسلحة كلها ، فإذا أيقنوا أنك لا حاجة لك بهم ، أيقنوا أنهم لا حاجة لهم فيك ، وانصرفوا . . وماذا يصنع « المرابى » فى بلدة لا يجد فيها من يتعامل معه بالربا ؟ . . .

***

نعمة من الله عليك أن امتحنك بهذه المحنة ، وأنت فى مفترق الطريق ولو تأخرت المحنة قليلا لخشينا أن تسلكى أضل السبل . .

فرصة من فرص الدهر هيأها لك القدر للرجوع إلى هدى محمد ، ومحامد العرب ، وروحانية الشرق ، فإن انتهزتها محوت آية الغرب ، وجعلت آية الشرق مبصرة . . .

***

ويا مصر ؛ نحن وأنت سواء فى طلب الحق ومطاردة غاصبيه ، ونحن وأنت مستبقون إلى غاية واحدة فى ظلام دامس ؛ ولكنك أصبحت ، فيابشراك ، ويا بشرانا بك ، ولم نزل نحن فى قطع من الليل ، نرقب الفجر أن يَنْبَلِجَ نوره ، وما الفرج منا ببعيد . . .

«المسلمون» شهاب

للأستاذ عمر عبد الفتاح التلمسانى

أجل . المسلمون شهاب ، لها من اسمها الضخم ثروة ، ولها من غايتها السامية مكانة ولها من إيمان صاحبها وإقدامه ، وتفانيه فى دعوته ، وإخلاصه لرسالته ، وحرصه على أن يظل اللواء مسموق الذرى عالى الجنبات ، إلى كل ذلك من إمكانيات راسيات ، تدفع بها قدما إلى الأمام لتحقيق المقصد النبيل .

وأومن بأنه لا يخامر أخا مسلما ريب فى أن « المسلمون » صورة صادقة من الشهاب الحبيب ، الذى نعمنا جميعا — ردحا من الزمان — بفيض توجيهاته ، وغزارة مادته ، وسمو فيوضاته . ولئن شاءت إرادة الله أن تحجب عنا إشراقة الشهاب فى أوج لمعانه ، فلقد كان من فضله ومنّه كذلك أن يردف الشهاب المحجوب بـ « المسلمون » البازغة فى أفق الحياة الإسلامية ، بزوغا ما أشد حاجتنا وحنيننا إليه .

وما كنت لأبعث بهذه التحية قبل أن أتصفح « المسلمون » وأستوعبها ؛ وإلا كانت تحيه زائفة ، وتقديراً رخيصا ، أنزّه نفسي عنه ، وأسمو بـ « المسلمون » أن تعنى به . ولكن أما وقد قرأت واستمتعت واستفدت ، فلا أقل من تقدير الحق وذلك كل ما أملك وأستطيع .

أخى سعيد : ما إخالك وقد أصدرت « المسلمون » إلاّ حريصا على أن تظل آثار إمامنا الشهيد سليمة كاملة واضحة المعالم ، تطالع الإخوان شهراً بعد شهر ، وعاما بعد عام ، عن طريق نفثاتك الحارة ، وإيمانك الدفاق ، وبيانك الطاهر . وأحب الأعمال الطيبة إلى الله أدومها ؛ فلا تحرمنا هذه المتعة الروحية الغامرة ، ودعنا نستروح فى الخلف عَرْف إخلاص السلف ، والزم ميدان الكفاح الذى اخترته لنفسك أو تخيرك الله له . واعلم أن الطريق أمامك طويل ، والعمل مُضن شاق ، ولكنك تعلم أن الله لا يضيع أجر العاملين ، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم . أيدك الله وأيد بك . ؟

***

« المسلمون » اللهم آمين ، وجزاك الله يا أخى الكبير كل خير ، وهذه نصيحة غالية أدعو الله أن يهيء لنا أسباب العمل بها وهو الموفق المستعان .

سعيد رمضان

مع العارفين

عمرو بن عتبة

« ما أحسن الآن لو أن مناديا نادى : يا خيل الله اركبي ! ! »

« عمرو بن عتبة »

جلس عتبة بن فرقد أمير ماسبذان يوما إلى بعض خلصائه وقد أهمه أمر فوجه الحديث إلى عبد الله بن ربيعة فقال : « ألا تعينني يا عبد الله على ابن أخيك ؟ »

قال عبد الله : وما ذاك أيها الأمير ؟

قال : عمرو إنني أحب أن تعينني عليه .

قال : وماذا في أمره مما ترجو المعونة عليه ؟

قال : أريد أن يكون معي في عمل هذه الإمارة « يعينني عليه » ، فقد تقسم الزهد وسهر الليل وركوب الخيل والخروج للغزو كل وقته وعقله وجسمه ! !

قال معضد العجلي : أيها الأمير إن ابنك شغل بمعالي الأمور فدعه وما شغل نفسه به ، ولقد كنا خلقاء أن نعينك على ما ترجو من صلاحه لو أنه سدر مع الخلعاء والمستهترين بألوان اللهو والغفلة ، أما وهو مشمر إلى الله فلا ، ولقد كان الأمير — أعزه الله — خليقاً أن يعين ولده على ما هو بسبيله لا أن يستعدي عليه من يثنيه عنه

قال عتبة : والأمارة يا معضد ، من يعينني عليها ؟

قال معضد : لكأنك أيها الأمير تدخر ولدك للإمارة من بعدك ! وهيهات ، فابنك يحلق إلى إمارة أعز ، ومجد أشم ، ويعيش بنفسه في حقيقة علوية لا يروج لديها شيء مما نعيش فيه وله ؛ وما ذلك بمانعه يوما أن يكون أهلا لما تريد من الأمارة .

قال عتبة : إنه لا يمتعنا بنفسه ؛ فهو كثير التجوال والترحال والسفر إلى الغزو ؛ إذا أقام بيننا أقام كأنه غريب ، لا يأكل مما نأكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا يأخذ فيما نأخذ . وبودي لو يرفق بنفسه ويصيب مما نحن فيه فما حرم الله عليه شيئاً منه ، فإن نفسي تكاد تذهب من الرقة كلما رأيته في نحوله وذبوله ؛ وقد أعطيته بالأمس مالا ليصلح من حاله وكأني به لم يأخذه إلا براً بي وشفقة علي من أثر الرد ، ولا أدري ما هو صانع به . و . .

وهنا دخل عمرو بن عتبة فأمسك أبوه عن الكلام فقال عبد الله بن ربيعة : لعلك سمعت شيئاً مما كنا نتكلم فيه من أمرك يا عمرو .

قال عمرو بن عتبة : لم أسمع شيئاً ، ولكن لعلى قد فهمت الآن ما كنتم تتحدثون به .

قال عبد الله : « فأطع أباك عمرو » .

فسكت عمرو وأطرق حزينا يفكر فى وجد أبيه به ، وفى شوقه إلى الله ، وصمت المجلس لإطراقه وسكوته ؛ فرق له معضد العجلى وقطع الصمت بقوله : « لا تطعهم يا عمرو ، واسجد واقترب ! »

فأقبل عمرو على أبيه عتبة كأنما يضرع إليه وقال : « يا أبت إنما أنا عبد أعمل فى فكاك رقبتى ، فدعنى أعمل فى فكاكها » .

فبكى عتبة لضراعة ولده وقال : « يا بنى إنى لأحبك حبين : حباً لله ، وحب الوالد لولده » ، فامض لما تريد من أمر ربك .

قال عمرو : « يا أبت ، إنك كنت آتيتنى مالاً قد بلغ سبعين ألفاً فإن كنت سائلى عنه فها هو ذا نخذه ، وإلا فدعنى فأمضيه » !

قال عتبة : « فأمضه يا بنى » ..

« فأمضاها عمرو فما بقى منها درهم » .

***

ذلك هو عمرو بن عتبة ربيب بيت من بيوت الإمارة ، وشاب من شباب المسلمين الأولين تقدمه اليوم مثلا صالحاً لشباب المسلمين الآخرين .

كان متغربا فى الله ، وقدم من سفرته مع رفقة ، منهم ابراهيم بن علقمه ، ومسروق ، ومعضد ، حتى بلغوا مشارف ماسبذان مقر إمارة أبيه .

لو أن شابا من صغار النفوس فى مثل موقف عمرو ماذا كان يدور بنفسه من الزهو بين رفقته ، وهو يعلم أن مظاهر الجاه وشارات الرياسة التى سيرونها كفيلة أن تعلى قدره بينهم وتملأ صدورهم إكباراً له وهيبة ؟

. . . ماذا كان يصطنع من الحديث ليشعر إخوانه من طرف خفى بما هم مقدمون عليه ؟

لندع ما يكون من صغار النفوس فى هذا الموقف ، ولننظر ما فعلت تلك النفس الكبيرة التى كانت تحلق فى آفاق غير التى يعيش فيها عامة الناس ؛ فلا تزدهيها الشارات ولا تفرح بما يفرح به صغار الأحلام ؛ قال عمرو بن عتبة : « إنكم إن نزلتم عليه

صنع لكم نزلا (١) ، ولعله أن يظلم لكم فيه أحداً ، ولكن إن شئتم نزلنا فى ظل هذه الشجرة ، فقضينا مقيلنا وأكلنا من كسرنا » ؛ ففعلوا !

لقد بلغ هذا الشاب من الرشد ما لم يبلغه أبوه ! . . والرشد رشدان : رشد يميز به العقل المنطقى قيم الأشياء المادية فى الخارج ، ورشد يميز به العقل الروحى قيم الحقائق وأقدار المعانى .

والرشد الأول يبلغه الطفل بعد سن معينة فيصير رجلا ، والرشد الآخر قد يدركه الفتيان قبل الرجال ، وقد لا يدركه الرجال فيظلون أطفالا .

وتلك الحقيقية هى التى يجلوها لنا عمرو بن عتبة بسيرته الرشيدة وحسن إدراكه لأنواع القيم .

لقد أدرك رشده ، فهان فى نظره ما فى بيت أبيه من ألوان المطاعم والمشارب ، واستشعر وعيه الباطنى ريح نعيم قدسى فى ملكوت الله ، فعاف أن يكون بطنه وعاء لما عند أبيه ، وسما إلى نفحات الله يتعرض لها فى أصيله وسحره ، ومغداه ومراحه، فملأت إهابه طرباً وبهجة ، وقلبه نوراً وحكمة .

لقد أغناه عن دنيا الناس رغيفان كل يوم يسد بهما فراغ بطنه ، وفى رغيفين غناء لمن كان همه أن يبسط جناحيه للتحليق فى ملكوت الله ذاهبا مع ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الهمم العالية : « أدعموا طرق أبواب الجنة بالجوع » قال عبد الحميد بن لاحق : « كان لعمرو بن عتبة رغيفان كل يوم ؛ يتسحر بأحدهما ، ويفطر بالآخر » .. وأغناه عمّا للناس من فرش وأرائك ووسائد حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل أو بعض ساعة إذا أحس كلال التهجد والقيام .

لقد كان يترنم فى نفسه بكلمة سمعها من صديقه معضد العجلى : « لولا ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ماباليت أن أكون يعسوبا» فيهتز عطفاه من الطرب ، إذ يذكر بها الرياض التى طالما صدحت فيها بلابله .. فلذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ، كانت قرة عينه وبهجة نفسه ، ومهاده الوثير الذى آثره على كل مهاد ، ويارب ليلة أخذه من شجوها ما ينفى عنه طيف الغفوة فيظل فى بكائه ونشيجه ، وحذره ورجائه ، ونواشىء الأسحار من حوله يبسمن كالعرائس الغر بما نسج لهن من غلائل ذكره ونور تسبيحه ، فلا ينصرفن عنه إلى ملكوت الله

(١) النزل : الطعام

إلا حين يبسم له ضوء الصبح من خلال الأفق البعيد ، قالت أخت له : « أحسسته ذات ليلة وقد قام إلى مصلاه فجعلت إليه سمعى وانتباهى فاستفتح سورة «حم» فلما أتى على تلك الآية من قول الله « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » ، فما جاوزها ، وظل يرددها حتى خرج ليشهد مع الناس صلاة الصبح » ولقد قال بعض صحابته : « كنا إذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة عمرو وقيامه » .

تلك هى الموائد التى كان يطول عندها شدوه وتغريده : ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ؛ فلا نعم عيش عباد الدرهم والقطيفة !

لقد ظل عمرو يتحسس فى نفسه مواطن الرخاوة ، ومغامز الشيطان فيدبرلها علاجها فى الله حتى صلب عوده واستحصدت مرته .. عالج مغمز المال فوجهه إلى الله ،وعالج ترف المطعم والمشرب بظمأ الهواجر ، وعالج لين الفراش بلذاذة التهجد ، وبقى بعد ذلك مغمز الجاه والرياسة فما أسرع أن عالجه بأنجع دواء ، قال حويط بن رافع : كان عمرو بن عتبة إذا خرج فى أصحابه يشترط أن يكون خادمهم يرعى لهم ركابهم أو يسوقها !!..



فقل لى بربك أى شىء بقى فى هذا الفتى مما يطمع الشيطان فيه ؟

لقد حدّث هو عن نفسه : « سألت الله ثلاثا فأعطانى اثنين ، وأنا أنتظر الثالثة .. سألته أن يزهدنى فى الدنيا ؛ فما أبالى الآن ما أقبل منها وما أدبر ، وسألته أن يقوينى على الصلاة ؛ فرزقنى منها .. وسألته الشهادة فأنا أرجوها » .

هذه هى النوازع التى كانت تعتمل فى صدر هذا الشاب ، وتلك هى أهدافه التى هامت بها نفسه ؛ نال معظمها من فضل الله ، وبقيت الشهادة هدفه الأخير ومحوره الذى تدور حوله كل همته وخواطره وأشواقه فى اليقظة والمنام ، وليس كالصدق يرفع به الإنسان إلى الله دعاءه ورجاءه ؛ فما هو إلا أن يستجيب له ، وهذا فتى من أبناء السروات تلهج خواطره بذكر الشهادة ، وتهفو سريرته شوقا إليها وولها بها ، فلاجرم أن ينيله الله إياها .. لقد اشترى لغزوه حصانا بأربعة آلاف ، وكأنه يتأنق للشهادة إذ يغلى من أجلها ثمن الجواد ، فيقول بعض الناس : إن أربعة آلاف فى جواد لكثير ، فيقول : « والله لخطوة واحدة منه إلى عدو الله أفضل من أربعة آلاف » .

ولقد طلع على بعض رفقته فى جبة جميلة حسنة ، فهل تدرى ما كانت تتناجى به بلابل نفسه وهو يتحلى بهذه الجبة ؟ لقد ودّ لو تزين بوسام يغض من قدر كل وسام إلا وسام النبوة ، لقد قال لأصحابه وهو يشير بأصابعه لمواضع فى الجبة « ما أحسن أن يتحدر دمى على هذه الجبة ويجرى عليها هنا وهاهنا ؟! » .

إن جوانح الصديقين حين تهتف إنما تهتف بصدى ما تحسه من قرب مقادير الله ؛ فسرائرهم النقية فى هذه الأرض هى المرآة التى يتراءى فيها مايشاء الله من مقاديره الموشكة ، فيهتفون بما يهتفون به من آمال صادقة ، وهم لايدرون أن القدر على قيد خطوات منهم قد حضر بما يريدون .

لقد وقف فتى صحابى يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله لقد أعطيتنى حظى من الغنيمة ، ولكنى لم أسلم ولم أقاتل من أجلها ، بل أسلمت وقاتلت ليصيبنى سهم فى نقرة نحرى هاهنا (وأشار بأصبعه إلى نحره) فأقتل شهيداً فيدخلنى الله الجنة ، فقال له عليه السلام : « إن تصدق الله يصدقك » فلما كانت موقعة من المواقع جىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بفتى قتيل وفى نحره سهم مغروز ، فلما رآه عليه السلام قال : « أهو هو ؟ » قالوا نعم هو هو يا رسول الله ! . ورأى فيه الصحابة مبلغ استجابة الله لصدق الصادقين . .

وها هو ذا فتانا يمر بأصابعه على أماكن فى جبته الجميلة ويقول ما أحسن أن يتحدر دمى على هذه الجبة ، ويجرى عليها هنا وهاهنا ؟ . . نعم ياعمرو ، سيتحدر الدم عن قريب فما أنطقك بهذا إلا القدر الذى حضر بما تريد !!..

خرج عمرو مع صحابته بجبته ، فاستقبلهم مرج ضاحك مبتهج . طلق الهواء . لين النسمات ؛ فما أن سار فيه حتى تحرك فى نفسه وجد ، وثارت بقلبه أشواق ، وكأنما لم ير فى المرج مرجا ، بل روضة من القدس حضرت له مع القدر بريح الجنة ، فانبعثت من أعماقه نفحة من هيام : « ما أحسن هذا المرج . ما أحسن الآن لو أن منـــاديا نادى يا خيل الله اركبى ! ! »

***

قال راوى الخبر « فوالله ما كان بأسرع من أن نادى مناد : يا خيل الله اركبى ، فركبنا وركب عمرو ، وعلم أبوه بركوبه ؛ فقال على عمراً ؛ على عمراً ، فأرسل فى طلبه ، فما أدرك حتى أصيب » .

يالقدر الله ! أصيب بحجر إصابة ليس لمثلها أن تكون قاتلة ! أصابه جرح صغير فجعل يخاطبه — وهو يرى الدم يجرى منه على المكان الذى أشار إليه بأصابعه فى جبته — ويقول : والله إنك لصغير وإن يشأ الله تعالى يبارك فى الصغير ! » فلما كان المساء ، بارك الله الجرح الصغير ، وجاء بالشهادة المرموقة وصعد الروح الطاهر إلى بارئه ، ودفن الجسم الطاهر فى الجبة البيضاء ، ذات الدم الزكى الطاهر ، فى نفس المرج الذى هتف فيه : « ما أحسن الآن لو أن مناديا نادى يا خيل الله اركبى » يرحمه الله .

تونس المسلمة

حجازى

طبيعتها :

تبلغ مساحة تونس ١٢٥١٨٠ كيلو متراً مربعاً ، وهى تمثل القسم الشرقى من المغرب العربى الواقع فى شمال قارة إفريقية . تحدها من الغرب الجزائر، ومن الجنوب الشرقى ليبيا ، ومن الجنوب الغربى الصحراء . وتربطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس التى تعتبر العمود الفقرى لأقطار المغرب العربى . والتى جعلت من هذه الأقطار وحدة جغرافية متسقة ، وتتخلل هذه الجبال سهول كثيرة مشهورة بإنتاجها للحبوب .

أما الشواطىء فى تونس فهى منخفضة على العموم ماعدا فى الشمال ، وتحتل السهول ٨٦ ٪ تقريباً من مجموع مساحة القطر التونسى .

ومناخ تونس على العموم دافىء معتدل . أما الأمطار فهى غير منتظمة .

وأهم المدن : تونس والقيروان وصفاقس وسوسة وبنزرت وقابس والمهدية وتوزر ومساكن والمنستير والقلعة الكبرى وماطر وباجة والكاف وقرطاجنة .

ومدينة تونس الواقعة على خليج تونس هى العاصمة الإدارية والثقافية والاقتصادية . وكان تاريخها قبل الفتح الإسلامى مجهولا ؛ إذ أن العاصمة فى ذلك الحين كانت مدينة قرطاجنة ، وبعد الفتح العربى اتخذ العرب من مدينة القيروان عاصمة لهم ، وبعد أن استولوا على مدينة قرطاجنة سنة ٦٩٨ م بدأت مدينة تونس تنافس القيروان حتى أصبحت عاصمة من العواصم الإسلامية التى ازدهرت فيها الحضارة العربية .

السكان :

يبلغ عدد سكان تونس حوالى أربعة ملايين ، ولغتهم هى العربية ، وتعتبر اللهجة التونسية العامية من أقرب اللهجات للعربية الفصحى ، ويدين جميع السكان العرب بالدين الإسلامى ويتبع معظمهم المذهب المالكى ، وقد فتحها المسلمون على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هجرية .

ويوجد فى تونس أقلية من اليهود يبلغ عددها ٧٢,٠٠٠ نسمة ، وقد استوطنوها من أقدم العصور وخاصة بعد أن طردوا من الأندلس ، كما كانوا يلجأون إليها هروبا من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه فى أوربا .

أما الجاليات الأوربية فيبلغ تعدادها حوالى ٢٤٣,٠٠٠ نسمة ، وهى تعيش بالمدن فى أحياء خاصة وتتمتع برفاهية لا يتمتع بها السكان العرب ؛ وذلك بسبب المساعدة التى تبذلها لهم السلطة الفرنسية لتمكنهم من الاستيلاء على خيرات البلاد واستغلالها لمصالحهم الخاصة .

المنتجات والمعادن :

اشتهرت تونس منذ عهد قديم بزراعتها ، وكانت تسمى فى عصر الرومان « مخازن روما » لما كانت تنتجه من الحبوب ، والزيوت ، والتمر ، ومختلف الفواكه .

وبالرغم من ثروتها المعدنية الكبيرة فهى قبل كل شىء بلاد زراعية ، ومعظم سكانها يعيشون على الزراعة بصورة مباشرة .

وأكثر المنتجات الزراعية التونسية هى الحبوب إذ تزرع فيها سنوياً مساحة تبلغ ١,٥٩٠,٠٠٠ هكتارا (١) بينما لا تتعدى المساحة المغروسة بأشجار الفاكهة ٦٣٠,٠٠٠ هكتارا ، ويحتل القمح والشعير ٩٣ ٪ من مجموع المساحات المزروعة حبوباً ، ويبلغ متوسط إنتاج القمح السنوى ٣,٨٦٠,٠٠٠ قنطاراً ، ويبلغ متوسط الصادر منه من خمسمائة ألف إلى مليون قنطار (٢) ، ويوجد بالمنطقة الشمالية غابات وأحراش شاسعة استولى عليها الفرنسيون .

ومن أهم المحصولات : الزيتون الذى يبلغ عدد أشجاره ٢٢ مليون شجرة ولا يزال فى ازدياد وتأتى تونس فى الدرجة الرابعة بعد أسبانيا وإيطاليا واليونان فيما تحتوى عليه من أشجار الزيتون وهى الثالثة فيما تصدره للخارج إذ يبلغ ما تصدره من الزيت ٦٠٠,٠٠٠ قنطار سنوياً من إنتاج قدره ٨٠٠,٠٠٠ قنطار .

وقد اشتهرت تونس بصناعة الشاشية « الطربوش » والسجاد والخزف ونسج الحرير والصوف ، ونقش النحاس والفضة .

وأرض تونس غنية بمعادنها المختلفة وتعد ثانى أقطار العالم المنتجة للفوسفات ، كما يستخرج منها الحديد والرصاص والزنك والمنجنيز والنحاس والبروم والبوتاس . وتعتمد تجارة تونس مع الخارج على تصدير القمح والزيت والفوسفات .

بدء التدخل الأجنبى :

منذ احتلال بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ بدأت فرنسا توجه أنظارها إلى تونس . وقد بدأ التدخل الأجنبى يتسرب إلى تونس ويتسع شيئاً فشيئاً فى القرن التاسع عشر ؛ ففتحت أبواب البلاد للجاليات الأجنبية ، وشرع الأمراء فى استقدام الفنيين الأجانب وإعطائهم بعض الامتيازات ؛ مما حمل القناصل على التدخل لحماية مصالحهم ، وبهذه الطريقة تمكن هؤلاء القناصل من توطيد علاقاتهم بالبلاط والتأثير عليه ، وخلق المشاكل بينه وبين الدول بسبب المشروعات الإصلاحية التى كان القناصل يوعزون بإدخالها ، لا بقصد الإصلاح وإنما بقصد إحداث الاضطرابات وتقويض أركان الحكم فى البلاد ، ثم حملوا الدولة التونسية على أخذ قروض من أوربا ، وتمكنوا بدعوى حماية هذه الأموال من التدخل الفعلى فى شئون البلاد ، وهكذا ضيقت هذه الدول الخناق على تونس ، ووضعت فى عنقها أغلالا عجزت عن التخلص منها فيما بعد .

وقد أدت هذه الحالة إلى فرض ضرائب مرهقة للشعب لأداء الديون التى أثقلت كاهلها ، ونتج عن هذا التصرف قيام ثورة فى البلاد بزعامة على بن غذاهم سنة ١٨٦٤ م .

وأمام الضغط الدولى وتحرج الحالة سلمت مصلحة الجمارك للأجانب وتكونت لجنة مالية دولية تحت رئاسة الجنرال خير الدين سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٠ م) وقد وحدت اللجنة الديون التى بلغت ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك . وأصبحت هذه اللجنة ميداناً للتنافس بين الدول . واتخذتها إيطاليا

---

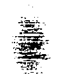
(١) إحصاء سنة ١٩٣٩ .

(٢) كل الأرقام المذكورة مأخوذة من متوسط خمس سنوات .

وانجلترا وسيلة لمقاومة فرنسا ، وعملت فرنسا على إحباط أعمال هذه اللجنة حتى تزداد أحوال تونس استياء واضطرابا فتتسلم هي مقاليد الأمور وحدها . واتخذت من المناوشات البسيطة التي كانت تحدث على الحدود بين التونسيين والجزائريين سبباً للتدخل المباشر في شئون البلاد .

فرض الحماية :

وبالرغم مما تعهد به الباي — محمد الصادق في ذلك الحين — من دفع الغرامات وضمان الأمن زحفت الجيوش الفرنسية من الجزائر على تونس بدون سابق إنذار ، بينما نزلت قوات أخرى من البحر في ميناء بنزرت ومنطقة طبرقة . وبعد معارك لم تدم طويلا وصلت القوات الفرنسية في يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨١ م . وحوصر الباي في قصره ، وعرض عليه قائد الجيش الفرنسي معاهدة (باردو) وأجبره على إمضائها ؛ وهكذا فرضت الحماية وظل احتلال الجيوش الفرنسية لعدة مناطق من البلاد ، وصارت هذه المعاهدة المفروضة هي سند الاستعمار الفرنسي لتونس من يومئذ ، وأصبح الشعب يعيش تحت كابوس من الإرهاب لانظير له ؛ فالحريات العامة لاوجود لها : فلا صحافة حرة ، ولا حرية اجتماع أو قول أو تنقل ، بل الاستناد إلى القوة وفرض الأحكام العسكرية لإخضاع البلاد ، وتكميم الأفواه .



التعليم :

١ — الكتاتيب : وهي مدارس بسيطة معدة لتحفيظ القرآن الكريم ، ومبادىء القراءة والكتابة وهي منتشرة في البوادي والقرى وعددها ١٨٠٠ مدرسة وعدد التلاميذ بها ٣٦ ألفاً .

٢ — المدارس الابتدائية : وقد أسسها الفرنسيون ، ووضعوا لها برامج فرنسية لم يكن للغة العربية فيها نصيب ؛ وكان الغرض منها إخراج الناشئة من قوميتها العربية ، وقطع الصلة بينها وبين ماضيها وتاريخها لتتمكن من إدماجها في العنصر الفرنسي .

٣ — ولكن العرب لم يرضوا بهذه المدارس ، ورأوا أن يعتمدوا على أنفسهم فأسسوا مدارس حرة من أموالهم الخاصة لإشباع رغبتهم الملحة في الثقافة والتعليم . ولكن العراقيل وضعت في طريق تلك المدارس فلم يتعد عددها ٤٦ مدرسة بها ١٤٢٦١ تلميذاً وتسمى هذه المدارس (القرآنية الأهلية)

٤ — أما التعليم الثانوي العصري فيكاد يقتصر على (المدرسة الصادقية) ، وهي تؤهل تلاميذها للحصول على شهادتها النهائية ، وشهادة البكالوريا الفرنسية ، وقد تخرج من هذه المدرسة عناصر صالحة تعزز النهضة القومية في الوقت الحاضر . ويبلغ عدد التونسيين بالمدارس الثانوية ١٢١٣ تلميذا منهم ٧١٠ بالمدرسة الصادقية وحدها .

٥ — ويوجد كذلك بتونس (المدرسة العلوية) وهي مدرسة ابتدائية ثانوية أسست لتخريج المعلمين كما توجد عدة مدارس ثانوية فرنسية أهمها (الليسيه كارنو) .

٦ — الجامعة الزيتونية : وينقسم التعليم فيها إلى ابتدائي وثانوي وعال . والتعليم بها يشبه التعليم بالأزهر . ويصرف على هذه الجامعة من أوقاف خاصة ، ويبلغ عدد الطلبة بها عشرة آلاف وهم يتزايدون سنة بعد سنة .

٧ — معهد ابن خلدون : وهو معهد حر به قسم ثانوي وقسم ابتدائي ، يتلقى فيه طلبة جامعة الزيتونة العلوم الحديثة .

ولا يوجد بتونس تعليم عال حديث ، فليس بها جامعات ، وطلبتها يضطرون لاستكمال تعليمهم بالمعاهد الفرنسية رغم ما يوضع في طريقهم من عقبات .

فى أفق العالم الإسلامى

مؤتمر العلماء :

انعقد فى الثامن عشر من هذا الشهر — جمادى الأولى — مؤتمر العلماء فى كراتشى ، وهذه هى المرة الأولى التى يلتقى فيها علماء الإسلام من مختلف أقطاره فى مكان واحد . وجزى الله علماء الباكستان كل خير ؛ فهى محاولة ميمونة ندعو الله أن يبارك فيها حتى تؤتى أكلها الصادق الدائم .

والمسلمون وإن كانوا قد سئموا الاجتماعات والمؤتمرات ، يشعرون جميعاً بحاجتهم إلى رابطة تلم شعثهم ، وتجمع أهل الرأى فيهم على أمر سواء ، وهم يدركون أن أكثر مايدور حولهم من اجتماعات إنما يرجع فشله إلى أنه لا يقوم على نية واضحة من « ابتغاء وجه الله » ، ولايتجه اتجاهاً مستقيما فى فهم الإسلام وخدمة مواريثه الغنية المهملة . وإذا اعتل الاتجاه إلى الله ، وزاغ الجهد عن توجيه الإسلام وتكاليفه — مهما ثقلت وبدا بها صاحبها غريباً — لم يبق بعد فى العامل بركة تصحب سعيه ، ولم يبق للعمل — مهما أضفى عليه من مظاهر الدعاية والإعلان — أساس يستقر عليه وسط هذه الرياح الهوج من فتن العصر المظلم الذى نعيش فيه . ولا عجب بعدئذ إذا وجدنا فى المسلمين انصرافاً عن هذا الضرب من المحاولات ؛ لأن الشاردين منهم لايجدون فيه مايرد أنفسهم إلى الله وجادة الحق ، والصالحين فيهم لا يجدون فيه ما تسكن قلوبهم إليه .

لذلك فنحن نستقبل مؤتمر العلماء استقبالا من نوع جديد ، نستقبله وفى صدورنا مزيج من العواطف الكبيرة : بعضها الحنين العميق إلى التراث المجيد الذى يمثله علماؤنا الفضلاء ، وبعضها الحسرة المضنية أن نراهم مقطوعين عن واقع حياتنا الممسوخ المتمرد على الله ، وبعضها الأمل القوى فى عهد جديد ترد فيه القافلة إلى حاديها القديم ، ويتبلج الفجر « الصادق » بعد هذه العتمة القاسية ليتصل ركب المسلمين الشارد بأعلام طريقه المستقيم . ومعنى ذلك كله أن العلماء يجتمعون وفى أيديهم ثروة حاضرة من عاطفتنا : من حنيننا إلى الأمس الذى ولى ، وحسرتنا على الواقع المر ، وأملنا فى الغد المغيب وجهه ، ومن دعائنا الحار إلى الله أن يبارك نياتهم ، ويلهمهم رشدهم ، ويكتب لهم التوفيق . وهم كذلك يجتمعون ومعهم عين الله التى لا تبالى إلا بالحق ، ولا تبارك إلا الصدق ولا ترعى الدعوى الكبيرة إلا إذا صدقها العمل الكبير « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

* * *

و « المسلمون » تستأذن العلماء الفضلاء الذين اجتمعوا منذ أيام لتضع بين يدى لجان المؤتمر العاملة معنيين :

١ — خطر رد الفعل :

إن المطلب الذى يلتفت إليه الذهن حين يسمع عن مؤتمر إسلامى فى هذه الأيام هو تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة بين المسلمين جميعاً وذلك بدمجهم فى أمة وحدها الإسلام . ولكن هذا المطلب يأخذ فى التفكير والعاطفة طابعاً سياسياً ثائراً . وهذا طبعى ما دام المسلمون ممزقين هكذا يأكل أشلاءهم الجياع المسعورون من كل لون وجنس ، وما داموا يعانون مؤامرات الاستعمار وضرباته

في المغرب والمشرق . بيد أننا في غمرة هذه الحماسة نتعرض لخطر شديد يهدد الإسلام : يهدده من المسلمين قبل غير المسلمين ؛ ذلك أن النهضة الإسلامية اليوم تتسم بالثورة على القصور في فهم الإسلام ، وحده بحدود ضيقة من الدروشة التي لا يعرفها . وأصحاب هذه الثورة محقون في ثورتهم إلى حد كبير ، فقد حبس المسلمون أنفسهم طويلا على معان ضيقة من عبادات الإسلام . وحتى هذه لم تسلم من التقصير والخرافة . وتركوا شئون الحياة المختلفة فلم يتركها المتربصون لهم « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ولكننا نخشى على أصحاب هذه الثورة « رد الفعل » : نخشى أن ينطلقوا من زاوية المسجد – حيث حبسنا الفهم الكليل ، وتقصير ذوى الفهم السليم في توجيه الناس وتربيتهم – فيجمح فرسهم بعيداً عن المسجد ومعانيه . نخشى أن يكون رد فعل العبادة بمعناها الضيق الذى أزعج هؤلاء الانطلاق من معانى العبادة والتحرر من تكاليفها ، نخشى أن ننتقل من طور كانت فيه دعوة الداعى شيئاً من : « اعبدوا الله واتقوه » إلى طور آخر تغفل فيه دعوة العبادة والتقوى ، وتصبح فيه الحركة الإسلامية – في عنوانها – حركة سياسية ثائرة تتلمس عاطفتها من نقمة المظلومين على الظالمين حيناً ، ومن النعرة الوطنية أو القومية حيناً ، ومن الترنم بمجد الإسلام السياسى حيناً آخر؛ فهى مزيج من ذلك كله . وقصارى نجاحها – إذا نجحت – أن تصبح (الإسلامية) نعرة جديدة بين النعرات ، ولوناً جديداً من ألوان القومية . كنا نقول : نحن مصريون أو سوريون أو عرب أو عجم ... فأصبحنا نقول : « نحن مسلمون » ، وحركة النفس في الحالين تعصب لحدود تضيق أو تتسع ؛ وليست هذه ثورة الإسلام وليس انتصارها انتصاراً للاسلام وإن كان الثائر أمة تنتسب إليه وتهتف به .

إن الإسلامية التى نستطيع معها أن نقول « نحن مسلمون » معناها أن نسلم لرب العالمين : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » . إن مجد الإسلام هو مجد كلمة الله في الأرض ، وإن رابطة الإسلام لا تقوم بين المسلمين إلا حين تشد عواطفهم إلى أساس ثابت من حسن الإسلام لله ، فلا يكون اعتزازهم حين يقولون « نحن مسلمون » إلا اعتزازاً بالنسبة إلى الله والجندية للحق : جندية الطاعة والعمل بكل ما نزل به وحى الله ، وإلا حين تكون دولتهم في الأرض دولة عقيدة تذكر بالله وتدعو إليه : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

ولا تتحقق هذه « الإسلامية » لنهضة المسلمين إلا بأمرين : أولهما : أن تأخذ العقيدة مكانها في منهاج دعاة هذه النهضة ؛ فيوقظوا العواطف الراكدة – حين يوقظونها – باسم الله ، ويحدوا المشاعر المشبوبة بحدود الله ، ويتخيروا لبنات بنائهم لبنة لبنة حتى يظل دائماً لله « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » . هو عمل شاق طويل ولكنه وحده الذى تسلم به نهضتهم لله . والأمر الثانى : أن يواجه دعاة الإسلام الواقع كما هو ولا يتجاهلونه فإنه محيط بهم ، وأن يدبروا لمشاكل الناس حلولها من هدى الإسلام . ولم يعد يكفى في ذلك الأسلوب السلبي الذى نردده من أن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان . بل لابد من حل عملى لكل مشكلة ، ورأى حاضر في كل قضية . ومن أهم مسائل الأمة الإسلامية اليوم : مسألة حياتها الاجتماعية ، والتفاوت الشديد بين طبقاتها ، وانحطاط مستوى المعيشة انحطاطاً سيئاً أليماً ؛ مما جعل غير المسلمين والجاهلين ممن ينتسبون إليه – وهم يرون هذا الواقع المر في كل أقطار

المسلمين — يرجعون الداء إلى الإسلام نفسه ، ويعتبرونه المسئول الأول عنه . فيجب على مؤتمر العلماء أن يبادر فيعلن أن الأحوال الاجتماعية كما هي الآن في بلاد الإسلام لاتمثل الإسلام في شيء وأن الظلم الاجتماعي تحرمه شريعة الله ، وأن المستوى الكريم العادل في المطعم والملبس والمسكن ، والتعليم والتربية ، والتطبيب شيء كفله الإسلام لكل قاطن في داره مهما كان دينه وجنسه ولونه ؛ لأنها حاجات ضرورية لا تقوم الحياة إلا بها .

إن هذه الكلمة حين يقولها العلماء الفضلاء لها وزنها وخطرها . وعلى حضراتهم مع ذلك أن يوجهوا الدعوة إلى حكومات الأقطار الإسلامية لتعمل على تحقيق مافرضه الإسلام ، وأن يذكروها بأن العمل — لا القول — هو الذي يعترف الإسلام به ، وأن الخطب والمواعظ لم تعد تكفي — دون عمل — لتنقذ المسلمين مما يعانون ، ولترد عنهم عادية المذاهب الخطرة التي تتخذ من المعدة الجائعة ، والعين الزائغة ، والواقع القائم المرير لغة خطيرة وحجة قوية .

وهذان الأمران يجب أن يكون مؤتمر العلماء فيهما قدوة لسواه ، ولديه من الكفايات ما يستطيع به أن يفعل الشيء الكثير إذا كان أعضاؤه صادقي العزم في بذل الجهد والمثابرة « وإذا صدق العزم وضح السبيل » .

٢ — لا نزال بخير :

« والمعنى الثاني » الذي نحب أن نذكره في هذا المقام : هو أن المسلمين — بالرغم من كل مايعانون في الغرب والشرق — لايزالون ينطوون على استعداد هائل لتلبية دعوة الخير ، ولايزالون كلما ذكروا بربهم وبالأمانة التي في أعناقهم بكوا وتألموا . واحتفاظ المسلمين بهذه العاطفة الدفينة تحت مطارق الأحداث خلال التاريخ الطويل ، ووسط هذه المعميات من الفتن يطمئن العلماء العاملين إلى أن الأمة لاتزال بخير ، ويشعرهم بمسئوليتهم ، وبالتقصير الشديد فيما مضى ، ويفسح لهم في الأمل إذا عملوا .

كتب الله التوفيق لمؤتمر العلماء وهيأ لنهضة الإسلام رجالها ، وأخذ بيدهم وأيدهم بروح منه . اللهم آمين .

وادي النيل :

أقيلت وزارة رفعة مصطفى النحاس باشا ، وولى رفعة على ماهر باشا الحكم أثر الحوادث المؤسفة يوم ٢٦ يناير . ولسنا نشك في أن الذين تسببوا في هذه الحوادث إما بله لايدرون ماذا يفعلون وإما مأجورون ليسوقوا للمستعمر الفرصة الذهبية التي ظنها أفلتت منه حين اتجهت الأمة كلها الاتجاه الصحيح الذي لا ينفع مع الغاصب سواه . وقد تم له ما أراد . ولنا في هذا المقام كلمتان كلمة إلى الحكومة الجديدة ؛ وهي أننا نعتب عليها مبالغتها في مسايرة أعداء البلاد الذين اتخذوا من حوادث ٢٦ يناير الأليمة قميص عثمان . وكان أولى بها وهي تستنكر الذي حدث أن تستنكر — بأسلوب لايقل عن ذلك قوة — ماحدث من الانجليز في القنال وأن تعلن أن بربرية الإنجليز التي لم يحدث مثلها في بلد متمدين كانت هي سبب الحوادث التي لم تحدث من قبل في تاريخ مصر الطويل ، والتي تضررت منها مصر المعروفة باكرامها لضيوفها من كل جنس . أما كلمتنا الثانية لشعب وادي النيل فهي : أن يعد نفسه لجهاد طويل ، وأن يدرك المجاهدون فيه أن أخطر مايعانيه الميدان هو خلوه من القاعدة الثابتة والخطة الواضحة ، وأنه مالم يفهم العاملون أين هم ، ومن معهم ، وماذا أمامهم أو وراءهم ، ويواجهوا الموقف بجرأة قد تؤلم ، وصبر قد يطول ؛ فإن الواقع سيرد عليهم ردا قاسيا . إن الأزمة أزمة أخلاق في الصغير والكبير . والإنجليز ذوو فن عتيق في اكتشاف ذوى الاستعداد للأمراض الشتى ...

فالحاجة السياسية الآن هى حاجتنا إلى جيل يستعصى على المرض والعدوى. وإعداده والسهر عليه هو العمل السياسى المستقيم .

* * *

إن فى وادى النيل يقظة مباركة ترقب كل مايدور حولها ، ونرجو أن يكون فيها — بإذن الله — ضمان لمطالبه التى أجمع عليها من كل عدوان يراد بها بليل أو نهار .

فى إيران :

خطت إيران هذا الشهر خطوة جريئة أخرى بإلغائها المعاهد والمدارس الأجنبية ؛ مما يجعلنا نطمئن إلى أنها تسير فى طريق واضحة نحو أهدافها .

وما أشد حاجة حكوماتنا فى مختلف الأقطار المسلمة إلى التأسى بما فعلته إيران ، والإقدام بجرأة على مثل عملها بما يستلزمه من أسباب الحكمة والحذر ؛ فإن هذه المدارس والمعاهد خطر داهم فى كل مكان ، وهى رؤوس ثعابين تنطلق من جحور رهيبة أحكم إخفاؤها وطلاؤها . ونحن نقتبس هنا ما يفتح العين على شىء من المؤامرة الكبرى التى تستعمل هذه المؤسسات وأمثالها فى العالم الإسلامى لتحقيق أهدافها . . نشرت مجلة الشرق المسيحى الألمانية[1] التى تصدرها جمعية التبشير الشرقية الألمانية منذ سنة ١٩١٠ مقالا بقلم « مون لبسيوس » الألمانى عنوانه : « دخول التبشير العام فى طور جديد » ذكر فيها أهمية المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى أدنبرج سنة ١٩١٠ قال فيه :

« إن مؤتمر أدنبرج كان فيه ١٢٠٠ مندوب بينهم ٥٠٢ من الإنكليز و ٥٠٠ من الأمريكان ، ومن مندوبى التبشير الأمريكيين « المستر روزفلت » رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق ، لكنه أرسل رسالة اعتذار عن عدم تمكنه من الحضور ؛ إلا أن المستر براين استطاع أن يحضر — وهو خطيب أمريكا المشهور وقد رشح نفسه لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة مراراً — وعلى هذا فالمندوبون الذين يتكلمون الإنكليزية كانوا أكثر من ألف ، والذين يتكلمون الألمانية كانوا ٩٨ ، والآخرون يتكلمون بلغات مختلفة ، ولذلك تقرر أن تكون الانكليزية لغة المؤتمر » .

وتقول هذه المجلة : « إن إرساليات التبشير الإنكليزية والإيرلندية تنفق فى السنة ٢,١٠٠,٠٠٠ جنيه فى سبيل التبشير . وجمعيات التبشير الأمريكية والكندية تنفق ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وجمعيات التبشير الأوسترالية والأفريقية والأسيوية والهندية تنفق ٣٠٠,٠٠٠ جنيه وما تنفقه جمعيات التبشير البروتستانية فى باقى القارة الأوربية يبلغ ٧٠٠,٠٠٠ جنيه » .

واقتبس صاحب هذه المقالة من مستندات مؤتمر أدنبرج عدد جيش المبشرين البروتستانت فقال :

« إنه يبلغ ٩٨,٣٨٨ مبشراً ، تعضدهم لجان يبلغ عدد أعضائها ٥,٥٠٠,٠٠٠ شخص ، ويبلغ عدد النساء والرجال الوطنيين وغير الوطنيين من موزعى التوراة الذين يشتركون فى التبشير والوعظ ٩٢,٩١٣ ، وعدد المعاهد الكنيسية ١٦,٦٧١ وعدد إرساليات التبشير العامة ٣,٤٧٨ ، والتى فى الدرجة الثانية ٣٢,٠٠٩ ، وعدد الأساتذة والتلاميذ الذين هم تحت إشراف المبشرين ١,١٩٠,٦٠٢ ، وتوجد تحت سلطتهم ٨١ مدرسة جامعية وكلية وفيها ٧,٩٩١ طالباً ، ولديهم ٤٨٩ مدرسة دينية لتعليم لاهوت النصرانية ، وتخريج المعلمين والمبشرين ، وفيها ١٢,٥٤٣ طالباً ، وهى تهيمن أيضاً على ١,٥٩٤ مدرسة ثانوية فيها ١٥٥,٤٢٠ طالباً ، ٢٨,٩٠١ مدرسة

(١) راجع كتاب الغارة على العالم الإسلامى ، تأليف ا . ل . شاتليه ، تعريب وتلخيص الأستاذ مساعد اليافى والسيد محب الدين الخطيب .